ROZA & OTHER STORIES FROM CLASSICAL RUSSIAN LITERATURE

روزا

قصص مختارة من الأدب الروسي الكلاسيكي

ترجمة | رولا عادل رشوان

فريق متميزون
E-BOOK

كتوبيا
KOTOPIA PUBLISHING HOUSE

ترجمات

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق -متميزون-

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

رُوزا

قصص مترجمة من الأدب الروسي الكلاسيكي

ترجمة: رولا عادل رشوان

نيكولاي نيكراسوف..

1828 – 1878

العَرَبة

نيكولاي نيكراسوف

اعترافات أحمق على فراش الموت

أقترب الآن من نهايتي، وقريبا يطرق الموت بأصابعه النحيلة على بابي! ذبلت روحي حتى ما عاد شيئا يمكنه أن يبعث فيّ الحياة ولا حتى قبلة تمنحها عذراء جميلة. بينما عشت أرتكب الخطايا وأجاهد العقل والمنطق، قضت الأقدار بطبيعتها القاسية على شعر رأسي حتى ما عاد أي شيء قادرًا على إنباته ولا حتى زيت الماكسّار ([1]).

من الصعب أن تموت وأنت محمّل بكل تلك الذكريات عن الأعمال الحمقاء التي ارتكبتها، من العسير أن تفنى وأنت مثقل بحقيقة أنك قد ارتكبت من الذنوب ما فاق عدد شعر رأسك وأنت بعد شاب في مقتبل العمر. إنه لأمر على النفس شديد أن تتصالح مع الدنيا وقد انبرى كاهلك من كثرة ديونك.. إنه لأمر شديد.. شديد. آه.. كم أنا بائس، كم أنا أحمق، لماذا لم أحسن التفكير قبل الإقدام على أفعالي؟ لماذا استغرقت كل هذا الوقت لأكتشف نفسي وأتعرف عليها. صديقي العزيز، تحلّى ببعض من شفقة وامنحها لجارك المسكين الذي اكتشف أخيرًا جدًا أنه كان أحمقا على الرغم من كونه قد اصطفى هدفًا واحدًا طوال حياته وهو أن يتجنب القيام بأفعال حمقاء. ارث لحال جارك البائس الذي اكتشف ذاته مؤخرًا جدا وقد عمل طوال حياته يناهض هدفه الذي طالما سعى إليه.

لا ألوم كائنًا من كان في أمر خضوعي للإغراءات. لم يزيّنها أحد في نظري؛ وإنما زرعت جذورها في نفسي بمفردها. أشكركم يا من حاولتم أن تثيبوني إلى رشدي، لقد كشفتم عن الحقيقة الْمُرّة التي توصلّت إلى فهمها متأخرًا جدًا، ولقد نزعتم ستارًا عن جهالتي التي سببت كل تلك التعاسة وخلقت مني روحًا مذنبة. لقد منعني الغرور السفيه من إدراك أنني كنت غرّ أحمق.

كنت قد نويت قبل وقت قصير من هذه اللحظة أن أورث العالم التاريخ الحافل لحماقاتي، ولكن مهمة المؤرخ عسيرة جدًا. من المؤكد أنكم تعرفون بالفعل -وعن تجربة- صعوبة أن يكون الفرد موضوعيًّا عندما يتحدث عن نفسه. لهذا السبب تحديدًا قررت ألا أمزّق الستار الذي تختفي وراءه أحداث حياتي وماضيّ، ومع هذا أظن أنني مجبر على أن أزيح ذلك الستار قليلًا، ذلك أنني أظن أن صراحتي ستعود بفائدة ما على الإنسانية. ربما أكون مخطئًا في ظني هذا، ولكن لا يمكنك أن تلومني على فكرتي الجريئة تلك. تذكر، أنا أحمق.

أعتقد أن ما جرى في فترة شبابي وألقى بظله على حياتي فيما بعد، سيكون مفيدًا لأحدهم. كن صبورًا: أريد أن أخبرك عن أعظم حماقات حياتي.

من بين كل المشاعر التي أثارت شبابي العاصف بالأحداث، كان الحسد يأتي دائما في المقام الأول، ولقد عانيت بسببه كثيرًا، ومع هذا، ما زلت لا أريد إدانة شعور الحسد ذاته. لنقمع الكراهية الشخصية للحسد في روحي، ولنبدأ أولاً في الحديث عن رأيي الصادق فيه. على غير الشائع عنه، وعلى الرغم من ضرره الأكيد، لا يعد الحسد عاطفة غير ذات فائدة؛ الحسد يولّد شعورًا بالغليان في الدم، وتنتفض به الروح من طول رقاد وركود، ويحمي المجتمع من تقاعس عن أداء الأعمال قد يصيب الإنسان. صحيح أن الحسد قد يُغذّي عقل الإنسان ومشاعره ويجعله يقوم بأشد الأعمال حماقة، وإنما سيفعلها حينها بجرأة غير عادية، فتبدو في ظل شجاعته أفعالًا حسنة تنم عن عقل وتخطيط رشيد. إذا تملك الحسد من الفرد أبقاه تحت ضغط كبير يدفعه دفعًا نحو التفاعل والتصرّف ويحمّس فيه العقل والإرادة. لا أتحدث أنا عن الحسد العادي الواضح الذي يمكن أن تقابله في كل خطوة في لندن وكالوغا، على جانب فيبورغ قريبا من نهر نيفا أو في نيفسكي بروسبكت، لكنني سأتحدث عن الحسد الذي يستحق اهتمامًا أكبر.

هناك أناس يحسدون نابليون وسوفوروف، وشكسبير وبارون برامبيوس، وكرويسوس وسينبريكوف؛ هناك آخرون يحسدون بوكيس وفليمون وبيتراش ولورا وبيتر وجون وستانيسلاف وآنا؛ هناك مجموعة ثالثة تحسد مانفريد وفوست، وهناك صنف رابع يحسد آخرين بخلاف هذه القائمة(2)... اختصارًا للقول، نحن جميعًا نحسد شخصًا ما. يمكنك مصادفة الحسد في المسرح مثلا بينما أنت تشاهد هاملت، أو في متجر المعجنات بينما تقرأ الجريدة العسكرية «روسكي أنفاليد»، أو في حفلة راقصة تمر بها إحدى الجميلات، لا يستطيع حاسدوها حتى مجرد الحلم بالوصول إليها. يبرز الحسد بشكل خاص في المعاملات التجارية وحتى الأدبية، ولكن كفانا حديثا عن الأحوال التي قد تلتقي فيها حسدًا أو حسودًا، فأنا أريد إخبارك عن مكمن حسدي الشخصي، أضع يدي اليسرى على صدري حيث يرقد قلبي، مستجمعًا قوتي، آملا في قدر رحيم يمنحني الفرصة، فلا أموت حتى انتهي من قص قصتي ومنح إرشاداتي لقارئي العزيز.

وُلِدت عند حدود جزيرة فاسيليفسكي، لعائلة نبيلة ولكنها فقيرة. صرت يتيمًا حال بلوغي ثمانية عشر عامًا، وورثت مبلغ يقدر بعشرة آلاف روبل. بناء على وصية أبي وهو على فراش الموت، سلّمت المبلغ «لأيد خبيرة» تستثمرها من أجلي، ولكن نسبة الربح التي كانت تأتيني لم تكن كافية لسد رمقي، لذلك كان لزامًا عليَّ العمل بالتدريس، ولكم اشتكيت من قدري، الذي يحتم عليَّ أحيانًا أن أقطع عشرة أمتار طويلة من أجل مهمة التدريس، أجني منها خمسة روبلات ضئيلة. «كم هو كبير عدد الناس الذين يتنقلون مستخدمين العربات!» ـ فكّرت «فيما يتميزون عني؟»، أصبحت هذه شكوتي المتكررة بمرور الوقت. كنت تعيسًا، وقد أعمتني التعاسة عن فهم كمّ الخطايا التي ارتكبتها في حق العناية الإلهية، مغرقًا من سخطي على قدر الإله ورغباته. آلمني قلبي طافحًا بالحسد كلما مرّت أمام عيوني إحدى العربات، وكرهت هؤلاء الذين استطاعوا امتلاكها. امتص الحسد روحي... مهما فعلت، وأينما حللت، لم تكن العربة تفارق أفكاري. صرت أفوّت دروسي، وأتكلم بغضب

وسوقيّة، وأتمادى في أفعال حمقاء، وكان الحسد سببًا رئيسا وحيدًا وراء هذا كله. وتماديت طويلًا في أسئلة يائسة وجهتها للقدر «لماذا جعلتني فقيرا ذا عوز أيها القدر القاسي؟ أي أعمال خيّرة قد نال بها هؤلاء ترف ركوب العربة؟ وأي خطايا ارتكبتها أنا لأستحق أن أعاقب بالمشي على أقدامي طيلة حياتي؟».

أما عن الويل الحقيقي، فقد اعتدت انتظاره في الأيام التي يصير فيها الطقس سيئًا. كلما أمطرت السماء وغاص الطريق في الوحل ولمع البرق، تشابه حالي وحال الدنيا في يومها السيء هذا وطقسها الأسوأ، فنظرة وحيدة لحذائي الطويل الموحل كانت كافية بإنبات غُصة في قلبي، ودموع في عيوني تهطل كما دفقات المطر، دموع تلمع في إثرها مآقي كما برق السماء، ويعصف عقلي متخبطًا في أفكاره ومآسيه. «إنه لأمر مروع وتعيس كوني لا أملك عربة»، كنت أصرخ بهذا بينما أقفز على أطراف أصابعي متفاديًا كتل الوحل. ثم فجأة تجمدت بفعل غضب أعمى، ذلك بعد أن مرّت بي عربة بينما أنا على حالي تلك. لم استطع حينها كبح جماح نفسي. كنت على استعداد تام للقفز داخل هذا الوحش ذو المقاعد الأربعة، كنت جاهزًا لأكل هيكله المربّع بعيوني، وراغبًا في ابتلاع صوت رنينه وتدحرجه على الطريق، وحاشرًا أسناني في عجلاته حتى أمنعه من التقدم. كان دمي يغلي، وساقي لا تقوى على المسير، وأغرقني المطر، وسطع البرق داخل رأسي، واحترق قلبي كما لو أن مسًا من البرق قد أصابه حين تذكرت أنني لا يمكنني التأخر عن ميعاد الدرس. صرت أهدأ بينما مرّ الوحش وتجاوزني، ولكن هدنة الغضب لم تطول.

صوت خشخشة عجلات أخرى عن بعد محت كل أثر للهدنة، عربة أخرى قادمة، وأحيانا.. آه، يا للرعب! اثنين، ثلاثة، أربعة وحوش مرة واحدة... لا مهرب ولا منجى على الإطلاق! تتطاير دفقات من كتل الوحل على جانبي، ملطخة قدمي، ويدي، ووجهي، وفمي.. أمر مريع! كم سببًا تحتاج لتكره البشر ومن على شاكلتهم؟ ها أنت تُطعم الوحل في العلن ولا تستطيع الاعتراض. «ليتك تتهشمين حطامًا يا صنيعة الشيطان اللعينة»، صرخت في العربة بينما أتفادى حوافر الحصان الذي يجرّها. وصلت معاناتي لرمقها الأخير. وقد تشابه شعوري نحو حبي الوحيد الذي أكننته لأخت أحد طلّابي وهذا الشعور العصي على التفسير ـ تجاه العربات. أصفه بكونه عصي على التفسير لأنه كان حقًا كذلك؛ لقد أحببت العربات، لهذا تحديدًا حسدت مالكيها؛ وكرهتهم وتمنيت لهم كل أذى وضرر لأنها كانت مصدر تعاساتي الوحيدة. آه، لكم كنت أحمقًا في ذلك الوقت. حتى حبي الذي أخبرت عنه، كاد يتحول إلى كراهية تامة لما علمت عن حبيبتي أنها من راكبي العربات.

كنت أعاني، وأتمزق من الألم، وتأكلني الحسرة كما سجين تشيلون([3])، وألعن سجني كما اللورد بايرون، وفي فورة من اليأس ضحيّت بكامل ما أملكه من رأس مال وبالتالي بالفائدة الشهرية التي كانت تعود منه وراءه. كنت احتاج للانتقام من الجنس البشري برمته لأبرّد قلبي، وكان الانتقام يلزمه امتلاك عربة، ولم يكن امتلاكها في حد ذاته ما قد يجعلني أسعد حالًا مما أنا عليه، وإنما فكرة امتلاك هذا الوحش الزاحف وتسلّطي عليه، فكرة امتلاكي كامل الحق في تحطيمها متى رغبت أو فارت ثورة غضبي... كانت هذه الأفكار حينها تستحق التضحية. ناضلت نفسي

لفترة طويلة. لفترة طويلة ظلت شرارة وحيدة متبقية من أثر عقلي السارح المخبول بالفعل، تحاول إنقاذي من لقب «الأحمق الأشهر على مر العصور»، وإنما أخيرًا تقرر مصيري بدافع من طارئ رهيب، كان له شرف تتويجي بلقب «أحمق حتى النخاع»، ذلك الأحمق الذي أشرُف الآن بكونه.

كان يوما لطيفا، وكنت رائق البال فلم أكن قد صادفت أي عربة في طريقي منذ مدة. كنت أفكر في قصة حبي، لم يكن هناك في الحقيقة أي داع للطمأنينة التي شعرت بها إزاءها، غير الشعور اللطيف بالمتعة الخالصة التي كنت أشعر بها في ذلك الوقت. كانت الفتاة التي أحبها تنحدر من عائلة ثرية، وُلدت لتعيش في رفاهية وسعادة يتخللها ركوبها المستمر للعربات. بينما كنت أنا مخلوقًا وُلد ليسير على قدميه، يفضح كماله عيبًا خطيرا ـ حسده للعربات! ولكن ديدن الأحمق وإيمانه يدفعه لحسن الظن في المستقبل وعقباته والاعتقاد بكونها ستمهّد هي ذاتها الطريق يومًا لصالحه. أقنعت نفسي أن كل تلك العقبات هي حقًا بلا قيمة، وأن كل شيء سيصبح على ما يرام، حتى أنني قد توصّلت لاستنتاجات مجنونة لا تتفتق إلا عن ذهن محدود كالذي امتلكته آنذاك.

فجأة، بدأت السماء تمطر، وأصبحت الأرض موحلة، وتداعت عربات وعربات تمر أمام عيوني، وبدأت -كعادتي- أتخيل مالكي العربات وهم يسخرون مني، وسائقيها وهم ينحرفون عن مسارهم خصيصًا ليدهسوا العابر المسكين السائر على قدميه تحت حوافر الأحصنة، ولقد تخيلتهم دائما يصرخون فيّ «اسقط أرضًا وودع حياتك يا هذا»، يا للحماقة، يا لعظيم الحماقة، ولكن عليَّ أن اعترف أن كل هذا الجنون قد بدا لي حينها من تمام العقل. عبرت الطريق بعدها؛ بينما لمحت على الطريق عربة قادمة في اتجاهي، حاولت تفادي أن تدهسني حوافر الحصان، كان ذلك عندما تطايرت كتلة من الوحل من تحت عجلات العربة واستقرت تمامًا على وجهي كلطمة. ارتعشت من شدة الرعب والغضب. كنت على وشك إزاحة الطين من على وجهي، حتى سمعت ضحكة رقراقة من داخل العربة.. يا للهول.. من تراه يضحك؟ أنزلت يدي، ولففت رأسي ونظرت للخلف، فوجدتها هي، الفتاة التي أحبها، قد أخرجت رأسها من العربة وأطلقت ضحكة مجلجلة. ما زلت أستطيع سماع صوت ضحكاتها في أذني. لا أستطيع أن أتذكر ما قلته تحديدًا حينها ولكني أتذكر أنه كان كلاما فارغًا مريعا. لقد خط القدر مصيري بقلمه لتوّه. جريت نحو المنزل كرجل مخبول. كانت كتلة الطين ما تزال عالقة بوجهي، محتفظة تحتها بحرارة غضبي وجنوني.

بعت بعدها كل شيء، وجمعت أموالي واشتريت بها عربة.. كم كنت أحمقًا.

بعد ارتكابي للحماقة الأخيرة، كان قد تبقى لدي بضع مئات من الروبلات، وقد ارتفعت نفقاتي، ذلك أن العربة اللعينة احتاجت سقفًا وعريشة، واحتاج الحصان إلى كشك وبعض من طعام الشوفان، وسكن لسائق العربة وخادمها وطعامًا لغذائهم، لذا أجّرت غرفة صغيرة ملحقة باسطبل كبير. قصدت أن أتوجه في أولى رحلاتي إلى منزل تلك العائلة؛ لألقّنهم درسًا. استقبلني أفراد العائلة جميعًا ضاحكين، كان بصحبتهم ضابط لا أعرفه، كانت تلك المرأة حفيدة الشيطان هي أعلاهم ضحكًا.

- «فقط تخيّل»، قالت الأم موجّهة حديثها إلى الضابط، «كنا في الطريق لشراء جهاز العروس لابنتنا الحبيبة...».

- «جهاز عروس لابنتكم؟» رددت من خلفها ونذير بالشؤم يطرق بابي.

- «نعم». أجابتني الحبيبة ضاحكة «كنا في طريقنا لشراء بعض الفساتين، ولم نكن حذرين بما يكفي، و... هاهاها، تطاير بعض الطين...

وقع كتاب قواعد زومبت اللاتيني من يدي إلى الأرض.

- «سأنتقم»، قلتها بينما أهرع خارج الغرفة عائدًا إلى العربة.

- «إلى أين؟» سأل خادم العربة.

- «إلى أي مكان ترغبه، فقط انتقي أقذر الشوارع الموحلة وسر فيها بأسرع ما يمكنك حتى تتطاير كتل الوحل القذر من كل صوب على كل عابر في الطريق سائرًا على قدميه». قلت لسائق العربة.

نظر كل من سائق العربة وخادمها نحوي باستهانة، ظانين أنني مجرد رجل آخر مخبول، بينما لم أكن كذلك، كنت فقط رجل أحمق.

منذ ذلك الحين، أصبحت متعتي الوحيدة هو ركوب العربة والتنقل فيها عبر الشوارع ومشاهدة الطين الذي تقذفه العربة بينما تجري وهو يلطّخ وجوه المارّة. فور أن ينقلب الطقس وتبدأ الأمطار في السقوط، ويمتلئ الشارع بالطين، حتى أطلق أوامري لتجهيز العربة، وأقفز داخلها، وأبدأ -بسعادة جنونية مطلقة- في تتبع طريق كتل الطين بداية من انزلاقها من تحت عجلات العربة وحوافر الحصان وحتى لطمتها الساحقة لوجوه السائرين. عزّيتُ نفسي وضميري بأنني الآن أحوز انتقامي الأخير من كل تلك الإهانات التي قد ألحقت بي طوال حياتي، قاذفًا جنس البشر وملطخة بالقاذورات والطين.

أحمق.

أنا أحمق.

على الرغم من محاولاتي، لم أستطع قذف كتل الطين والقاذورات في وجه هؤلاء الذين قذفوه في وجهي وعاملوني باحتقار.

في النهاية، انهارت قدرتي المالية المحدودة أصلا، برغم أنني امتنعت عن الأكل لأجد ما يكفي لإطعام الحصان، ولكن كل محاولاتي ذهبت جفاء.. جاءت اللحظة المريرة التي وعيت فيها واستسلمت لحقيقة أنني أصبحت معدمًا ولن أستطيع تحمّل مصاريف امتلاك العربة، ولكنني لم أبعها، وإنما هشمتها تمامًا بيدي هاتين في لحظة غضب ورأس عَدِم عقله. مجددا، عزّيت نفسي وحالي بأنني على أقل تقدير، قد ساعدت في التخلّص من أحد هؤلاء الوحوش ذوي المقاعد الأربعة، التي اعتادت الإساءة للأشخاص وتلطيخ وجوههم بالطين، بمن فيهم أنا. آه، كم كنت أحمقًا.

ماذا يمكنني أن أزيد عن كل الذي قلت؟ أخبرتكم بالفعل أن هذا الأمر كان له تأثير مدمّر على ما تبقى من حياتي. بقلب محطّم، وأحلام تدمّرت، شاحبًا، مرهقًا، قمت من سريري أخيرًا بعد مرض طال أجله أصابني بعد أن حطّمت العربة. كانت قواي ما تزال خائرة؛ ولكني كنت قد اشتقت لنسمة من الهواء العليل، للنظر إلى نور الشمس، فخرجت إلى الشارع. في نيفسكي بروسبكت، صدمتني عربة وخسرت رجلي اليمنى.

لتأخذوا العبرة من قصتي التعيسة، يا كُلّ من ساقته أقداره للسير والتنقل على قدميه، لا تحسدوا أصحاب العربات. إن أنقذت قصتي شخصين أو ثلاثة من حقد ومرارة الحسد، فسيعزيني هذا كوني قد فعلت على الأقل أمرًا صائبًا وحيدًا في حياتي، وهذا في عرف حياة الأحمق، فضل كبير.

في وصيتي الأخيرة، أوصي بطلب أخير لمن سيقومون بتوديعي حتى مثواي الأخير؛ بألا يسمحوا لأي عربة بالسير وراء نعشي. أدرك تمام الإدراك عن حماقة هوسي اللعين، ولكن لا يبدو أنني أستطيع التخلص من آثاره، كما العادات الأثيرة للإنسان، غير أنني أحمق عجوز، يمكن التغاضي عن هفواته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المُرابي

نيكولاي نيكراسوف

في تمام الساعة السابعة صباحًا، بينما استيقظت مدينة بيترسبرج، كانت هناك امرأة شابة تسير وحيدة عبر شوارع فاسيليفسكي، في خطوات سريعة وإنما غير متوازنة. كانت نظراتها الخائفة، ومحاولاتها المتواترة لإخفاء وجهها خلف ياقة معطفها الفرو، تنبئ عن أنها لم تعتد الخروج في ساعة مبكرة كهذه، وما دفعها لذلك غير حاجة ملحّة. لاح اضطراب رهيب على ملامحها؛ كانت ملابسها في حالة من الفوضى، وقد استمرت خصلات شعرها بالتطاير خارج قبعتها بفعل الرياح، بدا مظهرها غريبًا وإنما لطيف وجذّاب. على الرغم من روحها المشبعة بالقلق، إثر النظرات الفضولية من المارين، فلا يمكنك إلا أن تلاحظ كم هي جميلة.. خطت المرأة أخيرًا نحو بوابة منزل ضخم ذو خمسة طوابق وصعدت الدَرَج الطويل حتى سطح البناية في قفزات متعجّلة.

- «يا إلهي، ساعدني وادعمني!» همست بها المرأة بينما لمست جرس الباب بيد مرتجفة.

- «آه، من أرى أمام بابي؟ لم أظن على الإطلاق... مبكرًا هكذا...»، قالها الرجل العجوز ذو الشعر الرمادي الذي فتح الباب وانحنى للسيدة.

أرشد صاحب المنزل السيدة إلى إحدى غرف المنزل عبورًا بمدخل احتلته الفوضى، وبدا كما لو قد تم تطويعه من قبل صاحب المنزل، لاستخدامه كمطبخ. لاحظت السيدة أن مظاهر الفقر تظهر جليّة على الغرفة التي دخلتها لتوها. احتل ثلث الغرفة تقريبًا ساتر قابل للطي مغلّف بجرائد قديمة يعود تاريخها للعام الماضي، ظهر من خلفه سرير صاحب المنزل. بجانب الحائط تراصّت بضعة مقاعد تمزقت وسائدها في أكثر من موضع. على الحائط عُلقت ساعة ببَندول حديدي. تقف في وسط الغرفة طاولة وحيدة، رقد عليها لوح حسابات وبجانبه كتاب عن تحويل المبالغ المالية إلى فضة، ثم بعض السيجار. على أحد المقاعد يستريح الزي التقليدي لمالك المنزل ومعطفه ذو اللون الأخضر.

عندما وصل مالك المنزل وضيفته للحجرة، انحنى الرجل ذو الشعر الرمادي مجددًا. كان يرتدي ثوبًا خفيفًا ونظّارة ذات إطارات نحاسية، كان وجهه أصفرًا ومجعدًا، خاليًا من أي تعابير، وشفته السفلى مدلّاة كمزلاج تحطّم في إثر عاصفة. كان هناك أمرًا غير مريح ومثيرًا لعظيم الاشمئزاز على وجهه، حتى أنك إن وقع نظرك عليه لمرّة، فسيكون عسيرًا أن تقرر عامدًا تكرارها. كان الرجل يرتدي حذاء باليًا صُنع من جلد دب، ومن فوقه ارتفعت على ساقه جوارب بدت غاية في القذارة، أصدر الحذاء صوت طقطقة غريب بينما اقترب الرجل من السيدة.

- «ما تراها الفرصة السعيدة التي منحتني شرف زيارتك؟» قال الرجل محاولًا قدر استطاعته أن يبتسم.

- «آه يا سيد كورشينسكي، ليست هي فرصة سعيدة على الإطلاق، بل تعيسة. لا تنفك حالة زوجي تسوء أكثر فأكثر. انهارت تجارتنا، ورحل عنا العُمّال، ولا نستطيع تحمّل تكلفة العيش في منزلنا الكبير الواسع هذا».

- «إذن انتقلوا إلى آخر».

- «ليس لدينا ما يكفي من المال. لا أرغب في أن يعلم زوجي المريض بحالنا المزرى. ليس هناك أحد لأسأله المساعدة، وددت لو اعتمدت عليك لمساعدتي، لقد فعلت كثير من أجلنا بالفعل، لكنك تتعمد تجاهلنا منذ سقط زوجي فريسة للمرض».

- «لكن دعيني أذكرك، أماليا الجميلة، أنني ما زلت أفعل الكثير من أجلكم. لقد منحتك مالًا من قبل بوصولات دين مكتوبة، وحتى بدونها، ولكن واعذريني في هذا ولا تغضبي مني، حتى مع احترامي لعشرتنا القصيرة، لا يمكنني أن أمنحك مالًا أبدًا إلا مقابل شيء ترهنيه، هذه قاعدة صارمة أتبعها في هذا الشأن».

- «لقد منحتك بالفعل خلال فترة مرض زوجي كل الأشياء الضرورية التي يمكنني رهنها».

- «نعم فعلتي، ولكنك تتذكرين أنني قد منحتك مبلغًا في مقابل كل منهم».

- «ولكن لم يتبق لدي شيئا أرهنه لديك».

- «آسف جدا لهذا».

- «وجئت اسألك أن تمنحني بعض المال مقابل عهد مني بردّها».

- «لا يمكنني يا سيدتي».

- «لكن زوجي مريض، وهو في حاجة إلى علاج سريع، والأطفال جائعون، ويصرخون طلبًا لرغيف يسد جوعهم، آه لو وصلت توسلاتهم لآذان فرانز المسكين، سيقتله هذا الأمر حتمًا».

- «لا سيدتي. لن يقتله».

- «امنحني بعض المال حبًا بالله، لأشتري الدواء لزوجي وأطعم أطفالي، لن يضيع حقك، تذكر أنني قد رهنت لديك ما تزيد قيمته عما اقترضته منك».

- «ولكن حاجياتك تلك أصبحت ملكي الآن، تذكري أن وقت استردادها ودفع قيمة الرهن قد مر بالفعل منذ زمن».

- «إذن أنت ترفض الأمر تمامًا».

- «نعم! أعطيني شيئا ترهنينه مقابل المال، أمنحك ما ترغبين».

- «هل يمكنك أن تكون بمثل هذه القسوة ونحن نعدّك من الأخيار فاعلي الخير».

- «همم. فاعلي الخير! ولكن، هل أنا أحمق بما يكفي لأهبك المال حتى آخر كوبيك ([4]) أملكه. أنا نفسي رجل فقير يا سيدتي.. أكاد أموت جوعًا.. آه، نقود، نقود! من

اخترع هذه النقود؟ لو كان الله قد مَنّ على حالي الفقير البائس ومنحني ثروة أو ميراث.. ولكن من عساني أرث؟ ها أنتِ قد أتيتِ وشاهدتِ منزلي على حاله يا سيدتي، وما زلت تطلبين أن أمنحك مالًا وبدون وصل دين. إنه أنا الذي يعيش وضعا مزريًا الآن. اعذريني يا سيدتي، ولكني أحب أن أذكرك بأن موعد تسديد الديون القديمة قد فات، وأنا لا أحب الانتظار».

بدت تعابير وجه كورشينسكي ولغته الجسدية مسلّية للغاية طوال فترة حديثه. في بداية كلامه، تنهّد كورشينسكي، ونظر إلى السماء، ثم فرك يديه ببعضهما وابتسم؛ وأخيرًا عندما تلفظ بجملته الأخيرة بدا كما لو أن قناع تواضعه المهيب قد تكسر مخلّفا وراءه وجهًا سريع الغضب.

- «لن أعطيكِ مالًا؛ وأكثر من هذا أذكرك بأن ميعاد استحقاق الدين قد فات بالفعل، هل تفهمين؟».

فاجأت كلماته الأخيرة المرأة المسكينة فردّت في ذهول:

- «ماذا تقصد يا سيد كورشينسكي؟ كيف يمكن أن تتحول من صديق لألد عدو؟».

- «أظن أن الوقت قد حان لأشرح لك حقيقة الأمر يا سيدتي، لم أكن صديقًا لكم في أي وقت من الأوقات، لست أحمقًا لأخسر مالي مقابل الصداقة. لقد تمنيت دائما أن يحل بكم الشر وتتجرعون السوء. بل لقد حاولت حتى أن ألحق بكم كل أذى».

- «لماذا؟ في أي سبيل؟».

- «هل تذكرين يوم أن زرت منزلك لأول مرة وأفضيتُ لكِ بأمر ما؟».

- «ولكنك قلت لي فيما بعد أنك كنت تمزح».

«لا لم تكن مزحة. لقد أحببتك يا سيدتي، همت بك حبًا. سأخبرك بما أصابني حينها، عدمت النوم، لن أسامحك على ذلك أبدا».

- «ولكنك تملك مالًا كثيرًا، فلماذا تتقشف؟».

- «مالا كثيرا؟ من أخبرك بهذا الهذر؟». أكمل كورشينسكي حديثه وقد تغيّر وجهه. «مالا كثيرا؟ آه يا إلهي! ها أنت تعيش وتعاني وتشقى في الحياة، بينما يظنك الآخرون رجل غني.. غني! لو كنت رجلا غنيا يا سيدتي لأجرّت الطابق الرابع من البناية بدلًا من السقيفة، واتخذت خادمة تعينني على أعمال المنزل، وما كنت قطعت المسافات إذا اشتهيت وجبة، كانت لتجلبها الخادمة إليَّ. غني! من قال لكِ هذا؟ أخبريه أنه يكذب، يؤلف قصصا كاذبة عن الناس. لو كنت غنيًّا، لم تكن السيدة لترفض عرضي وحبي».

- «ليس صحيحًا».

- «وأنتِ؛ إن سمحتي لي، لستِ سوى مجرد مغلّفة كتب، أنسيتي ما فعلتي بي؟».

- «ولكنك قلت بعدها أنك قد سامحتني وأصبحنا أصدقاء».

- «لا لم أسامح، ولكنني أخفيت شعوري بالإهانة، وادخرت انتقامي واستثمرته وقررت أن أحصده كاملًا بالفوائد بعد حين، لقد جرحتي مشاعري، ولكن هذا انتهي الآن. أول ما سأفعله هو المطالبة بالدين، وسأستولي على جميع ما تملكون، وسأرسل زوجك إلى السجن».

- «أي ثعبان قد استضفته في بيتي، يا للقسوة، والوحشية».

- «لا تسيئي إليَّ يا سيدتي، ما زلتِ تحتاجينني».

- «ماذا سأفعل الآن، كيف أعود إلى المنزل بدون نقود، هذا موقف رهيب».

- «لا تبتأسي يا سيدتي، يمكن أن تتحسن الأمور.. فقط وافقي على طلبي.. أنت لا بُدّ تعلمين، ما زلت أحبك؛ سأمزق وصولات الدين، وأعيد لكِ كل ما رهنتِ لدي، وأعطيكِ مالًا حتى آخر كوبيك أملكه».

- «أبدا، أبدا». قالت المرأة وبعدها هرعت نحو الباب.

- «انتظري. سآتي عما قريب لأمتلك ضيعتكم، وسأضع زوجك في السجن، لتفرحي قليلًا بعد بقربه». قالها الرجل العجوز بعد أن خرجت المرأة مُسرعة.

«يا لغباء البشر»، فكّر، «لقد عرضت أن أفعل من أجلها ما لا أفعله أبدًا من أجل أي كان، هل هو سهل عليَّ أن أمزّق ورقة إثبات بدين قدره ألف روبل، ومنح أشياء ووهب نقود؟ ومع هذا تجرؤ على الرفض بعناد».

رن الجرس بعدها ودخل إلى الغرفة رجل يحمل لفافة تحت إبطيه.

- «ماذا تريد؟».

- «هل أنت المرابي الذي يقرض الناس مالًا مقابل رهن بعض الأشياء؟».

- «الأمور أشد صعوبة الآن. كل شيء أصبح غاليًا، ولا أحد يملك مالًا، إنه لأمر صعب جدا؛ الحصول على مال في هذه الأوقات».

- «فقط أخبرني كم يمكنك أن تدفع لي مقابل هذه الأشياء».

بدأ كورشينسكي في فحص الأشياء، قرّبها إلى الضوء، واختبر وزنها على ذراعيه، وقلّبها من كل اتجاه، ثم بدأ يحسب كم تساوي.

- «لا تساوي هذه الأشياء أكثر من ثلاثمائة روبل، لذا لا يمكنني منحك سوى مائة، متى يمكنك أن تعيد المال؟».

- «بعد ثلاثة شهور».

- «حسنًا، بعد ثلاثة شهور، وبنسبة فائدة عشرين في المائة؟ أي ستون روبل، تدفعهم مقدمًا، إذن تحصل في النهاية على أربعين روبل نقدا. هل توافق؟».

- «نعم. كما ترى».

- «إن أردت مزيدًا من المال، فلتأت بأشياء أخرى لترهنها، ولا تعتمد على الحصول على المزيد مقابل ما سلّمته لي الآن، ذلك أنني سأجعلك توقّع على تعهد بسداد الدين خلال المدة المحددة، بعدها تصبح هذه الأشياء ملكي».

بدأ الرجلان بعدها مناقشة طويلة، ظهر بعدها زائر آخر لقضاء نفس الحاجة، ثم جاء زائر ثالث لنفس الغرض، وسرعان ما امتلأت الغرفة بالزوّار. كان كورشينسكي يمنح المال ويأخذ ما يرهنه الناس مقابله، وانشغل تمامًا في عمله. بينما هو على ذلك الحال، دعني أقص عليك قليلًا عن من يكون كورشينسكي.

في شبابه، خدم كورشينسكي في الخدمة الأهلية، واستطاع بعبقريّته وذكاؤه الحصول على لقب مستشار عسكري شرفي. تقاعد كورشينسكي بعدها ولم يكمل مسيرته العسكرية فقد عدم الطموح في الترقي والاستمرار في العمل العسكري، بل استقرّت روحه على اهتمام آخر راودها؛ السعي وراء الكسب والمكاسب. واظب كورشينسكي طوال حياته على الانحناء والتذلل لمعبوده الأعلى وهدفه الأهم في الحياة، ذلك الذي اعتاد الناس، من دون سبب عقلاني، على تسميته بـ «الذهب».

اكتشف كورشينسكي منذ حداثة عهده قيمة المال وكيف تصبح حالة الفرد مزرية من دونه، وعملا بالمثل الذي يقول «اعمل جاهدًا على طول الزمان، لن تصيب الغنا قبل الموت والأوان»، قرر أن يتحداه محاولًا أن يدّخر كل ما أمكنه من أموال. على الرغم من ذلك ظل العائد من جم محاولاته قليلًا في غالب الأمر ولا يرضي طموحه. محاولات ومحاولات أوصلته لقدره الحالي، غير أن حساباته قد أخطأت في الحقيقة مرة واحدة فقط. فكّر كورشينسكي ذات يوم بأن خير وسيلة لإصابة قدر الأغنياء هي أن يتزوج من أسرة ذات أصل نبيل ومال كثير، ولهذا أعياه البحث عن زوجة بتلك المواصفات، وبعد فترة قرر أن يلجأ لخطوة أكثر جدية؛ تعرّف كورشينسكي على أحد الأغنياء من مالكي الأراضي وابنة أخيه الجميلة. بعدما توصّل كورشينسكي إلى حقيقة أن الرجل الغني ليس له وريث سوى ابنة أخيه، بدأ في التقرب إليها ولعب دور المتيّم القدير.

تضمّنت خطة كورشينسكي ما يلي: «بالطبع لن يوافق الرجل الغني مالك الضياع الكثيرة أن يزوجّني من قريبته، ولكنني سأتزوجها في السر رغم أنفه، قد يغضب علينا العم في البداية، إلا أنه ـ بقلة حيلته نحو الأمر الواقع سيمنحنا مباركته في النهاية، وحينها أصبح –وأخيرًا- ثريّا. وبالفعل، تحققت خطة كورشينسكي، إلا من نتيجتها النهائية، ذلك أن العم وفَوْر معرفته بزواج ابنة أخيه في السر، غضب عليهم وأخبر عن رغبته بألا تقع عينيه عليهم مرة أخرى. رحل كورشينسكي وزوجته إلى بترسبرج آملا في الحصول على عفو العم في ذات يوم قريب. أرغم كورشينسكي زوجته على كتابة خطابات إلى عمها طلبا للصفح واستدرارًا لعطفه، ولكنها لم تتلق ردًا في أي يوم على أي منهم. حزنت زوجته كثيرا لِما رأت من اهتمامه بثروتها إلى ذلك الحد، ولكن حياتها كانت ما تزال محتملة حتى اللحظة. تسلّمت الزوجة فجأة فيما بعد خبرًا عن وفاة عمّها من مدير أعماله، وقد أخبرها أنه مات دون أن يسامحها وقد منح كامل ثروته لأقاربه من الدرجة الثانية. دفعت الأخبار

كورشينسكي إلى حافة الجنون؛ فطفق يبكي في أول الأمر، ثم سرعان ما صار يفرغ شحنات غضبه واستياؤه على زوجته المسكينة.

منذ ذلك اليوم، أضحت الزوجة المسكينة فريسة لآلام وأحزان لا تنتهي، ولم يمر يوم دون أن يصيبها غمّ وأذى من فرط غرور زوجها الذي لا يهتم سوى لمصلحته. أفرط كورشينسكي في لومها وإهانتها مذكرًا إياها بأنه كان ليصبح غنيًّا لولا وجودها في حياته. أخيرًا ظل يدفعها بشديد قسوته إلى مغادرة المنزل، وتزايد عذاب المرأة المسكينة مع كل ساعة تمر في صحبة كورشينسكي. كانت لترحّب بفراقه لو لم يكن من أجل طفلها، الذي أحبته بكل روحها وقيّدها حبّه ورغبتها في ألا تفارقه. استعانت بعظيم إيمانها بالمسيح أن تتجاهل قسوة زوجها وإهاناته، ولكنها لم تستطع أبدًا التخلص منها؛ ذلك أن كورشينسكي لم يتوقف عند حد التعذيب النفسي والإهانة، بل امتدت يده القذرة وضرب زوجته في غير مرّة. عرضت الزوجة عليه أن تغادر المنزل شريطة أن يمنحها ابنها أو يوافق على زيارتها له على فترات ثابتة، لكن الوغد لم يمنحها حتى تلك الفرصة، وضاعف من عذاباتها والإهانات، لكم عُذّبت المسكينة.

في النهاية، رحلت الزوجة من المنزل وهي تتلو صلوات وتطلب من الإله الرحمة، بقلب مكسور، ومرض تمكّن منها، وطفل على ذراعيها. ابتهج كورشينسكي برحيلها على الرغم من قليل من ألم اصابه لفراق ولده، فقد بنى آمالا عريضة على تنشئته في المستقبل ليخلفه. عزّى كورشينسكي نفسه مع مرور الوقت، وأصبح يتذكر ابنه بأسى وإنما على فترات بعيدة. بدأ شغفه بجمع الأموال يتزايد بينما تنحدر أخلاقه وتتبخر من روحه كل قطرة من إنسانية، وخلال فترة قصيرة عدم كل ذرة شعور وإحساس قد زُرعت فيه يوم أن نُفخت روحه.

كانت روحه وجلّ اهتماماته تنحصر في النقود والثروات، والحسابات، الأمر الذي ساعده على عيش حياته بالطريقة التي يتمنى. حاز كورشينسكي فيما بعد سمعته كُمرابي يستطيع إقراض الناس المال، ومن هذا الذي لا يحتاج للمال؟ تمتع كورشينسكي بشهرته في ذلك المجال لثلاثين عامًا، ولكن، هل عاد عليه ذلك بأي فائدة وسعادة تذكر، هذا أمر لا يمكن أن يقرره سواه؛ فحياته البائسة، وشكواه الدائمة من فقره المدقع، ونظرة الجشع التي تعتري عيناه فور أن تلمح بريق الذهب، ألا ينبئ هذا كله عن حياة مؤسفة يعيشها تطغى حتى على مجده ونجاحه المستمر في مجاله؟

أما عن حياته الشخصية، فالصورة هنا لا تختلف كثيرًا؛ مظلمة، معتمة لياليها، باردة. قست روحه، وتجمدت مشاعره، وتصلّب إحساسه، بحيث صار من العسير بعثها من مرقدها، وخبا شغفه للحب بقدر ما خبت أطياف وجدانه، وكان ذلك حتى أن جاءت من أحيتها من عدم.

قبل ما يقارب عام مضى، قابل كورشينسكي آماليا بطلة المشهد الأول التي قابلناها قبل قليل، والتي تعمل في مجال تغليف الكتب، وانهار قلب الرجل الهشّ تحت وطأة الحب، ذلك القلب الذي لم يتخل أو يفرّط يومًا إلا لعشق رنين الذهب. ربما، وللمرة

الأولى في حياته، قرر كورشينسكي أن يضحي بكل شيء في سبيل نزوة، وبدافع من ثقته في ذاته كرجل غني، وحسن اختياره للوقت المناسب للحديث، ذهب من فوره إلى آماليا، المرأة التي وجد أنها لم تستجب لحديثه المهذب، بل وقد استبدلت رد فعلها الطيب الذي توقعه بصفعة كادت تحطّ على خدّه، فكان رد فعله الأول أن تفادي الصفعة ثم ما لبث أن حوّل الأمر كله ـ متظاهرا خجلًا ـ إلى مزحة.

ربما عدمت روح كورشينسكي كل إحساس وشعور، غير أنها من ذلك اليوم، فاضت بالشر والرغبة في الانتقام، ولم يزح الرجل عن باله على الإطلاق رغبته في امتلاك آماليا، لذلك بات يضع خطة بديلة آملا أن ينجح في تحقيقها؛ تصادق كورشينسكي وزوج آماليا، وأفرغ على أسرته من نبع حنان لا ينضب، واهتمام لا ينمحي حتى تملكت منهم كل ثقة تجاهه. كان فرانز وعائلته يعيشون حياة أقرب للفقر، ذلك أن رأس ماله كان بسيطا، وكان مقر عمله يقع في منطقة بعيدة عن المدينة، ولهذا عانى من قلة الزبائن. تحت ستار من اهتمام خادع ومحاولات زائفة لمشاركته همومه، عرض كورشينسكي منح فرانز ألفًا من الروبلات بدون فوائد ليدبّر بها أموره. قبل فرانز المال بامتنان، وتوسّع في أعمال تغليف الكتب، وعيّن أياد عاملة كثيرة لمساعدته، غير أن ظروف العمل ظلّت على حالها القديم ومن سيء لأسوأ، وكان العائد أقل فأقل، وصار المُرابي أسعد بهذا الوضع وأهنأ حالًا. وقع فرانز مريضًا معتل الصحة بنهاية العام، وانهارت حالته الصحية ساعة إثر ساعة، مما أدى أخيرًا لانهيار الأعمال وتفرّق العمّال وهجروا العمل. أما عن آماليا فقد صارت ملاكًا حارسًا لصحة زوجها التي خشت عليها من معرفة فرانز لكل تلك التطورات المزرية التي وصل إليها حالهم. واصلت آماليا الليل بالنهار لمراعاة العمل وسد رمقها وزوجها واثنين من الأولاد. ساعدها كورشينسكي بالأموال من دون فوائد، ثم بدأ بعدها، متتبعًا خطته الشيطانية، في طلب ممتلكات ترهنها لديه في مقابل المال، كان كورشينسكي يرغب في أن يصل بالعائلة المسكينة حتى آخر خطوة على حافة الفقر والإفلاس، وحينها يبدأ في التصرّف، ولقد رأينا كيف كان تعامله مع آماليا المسكينة وكيف كان موقعها من حديثه. بعد أن انتهى كورشينسكي من كافه تعاملاته من زبائنه، ارتدى معطفه، ووضع بعض الأوراق في جيبه، وحمل عصاه وقبعته وسار خارجًا من منزله. «علينا أن نُحصّل دين مُغلّف الكتب»، فكّر في نفسه، «علينا أن ننتهي أخيرًا وكلّيًّا من ذلك الأمر، إذا لم ترضخ آماليا... فلن أرضى بأقل من تحصيل المال كاملًا ووضع يدي على كافة ما يمتلكون من حطام الدنيا.»

بعد يومين من الحادث الذي عاينتموه في بداية الحكاية، جلست آماليا بجوار سرير زوجها فرانز بعيون حمراء من أثر الدموع وابتسامة أجبرت شفتيها على رسمها. كان فرانز شاحبًا كشرشف أبيض ورفيعا متآكلا كهيكل عظمي، وكان غالبا ما يوجّه نظراته نحو زوجته شارحًا الألم العظيم الذي أكل جسده والانهيار المُريع الذي أصاب روحه.

- «لماذا لم ترسلي مجددًا في طلب الطبيب يا آماليا، لقد مضت أيامًا طوالا ولم يحضر بعد، أرسلي إليه بعض الأموال علّه يتعجّل في الحضور».

- «فعلت يا عزيزي. أرسلت إليه بالفعل».

- «يا إلهي، كيف أصبحت عاجزًا هكذا فجأة عن التنفّس؟ هلا فككتِ أزرار قميصي العلوية يا آماليا؟».

- «ها أنا قد فككتها يا عزيزي».

- «آه، إنها السلسلة التي تسحق صدري برقودها ثقيلة فوقه».

- «كان عليك أن تخلعها منذ زمن طويل، إنها ثقيلة جدا، وحالتك الآن لا تحتمل رقودها ها هنا فوق صدرك».

- «لا لن أخلعها أبدًا، إنها عزيزة على نفسي، سأحملها طوال عمري ها هنا بجوار قلبي».

رفع فرانز السلسلة حتى شفتيه وقبّلها ثم أعادها لمرقدها فوق صدره.

- «أسمع أولادنا يبكون، هلا اشتريتِ لهم شيئا ليأكلونه!». قال فرانز بينما يستمع للضوضاء الآتية من الغرفة المجاورة. وأضاف بعدها: «كم أشعر بصدري ينطبق عليَّ، لا استطيع التنفّس، هلا ذهبتِ لاستدعاء الطبيب يا آماليا؟».

- «حالًا يا عزيزي».

رحلت آماليا عن الغرفة ودموعًا تقطر من عينيها فتمسحها متألمة. لكم كانت روحها تعاني؛ ها هو زوجها الحبيب المريض الذي هو على شفا الموت، والذي لا يمنعه عنه سوى جهله بحقيقة وضعهم المؤسف، والأطفال.. الجائعون حتى لكسرة خبز، وكلمات كورشينسكي البغيضة: «انتظريني يا آماليا سآتي لتحصيل الدين قريبا»، لا تفارق رأسها..

- «أمي، أمي، لقد وعدتِ أن تعطيني قطعة من الخبز الأبيض، أنا جائعة حقًا». قالت فتاة صغيرة دخلت مسرعة إلى الغرفة.

- «صمتًا، صمتًا» قالت الأم، «هيا نذهب من هنا وسأعطيك ما تريدين» خرجت مع الفتاة ونظرت إلى حيث يرقد زوجها الذي بدا مسكينا ومنسيّا.

- «لتنتظري قليلًا يا حبيبتي، حبًا بالله، قليلًا بعد».

- «آه، أنتظر؟ حتى متى أنتظر يا أمي؟».

ثم دخل طفل آخر أكبر من الفتاة بقليل إلى حيث تجلسان، وطلب كما أخته أن تمنحه أمه بعض الخبز.

- «إنك تعاملوننا بقسوة يا أمي، سأذهب إلى أبي وأطلب منه بعض الخبز».

- «وأنا سأذهب معك» قالت الفتاة الصغيرة.

- «لا تذهبا، اصمتا قليلا. إن لم تطع أمري، سأجبرك وأختك على المذاكرة طوال اليوم، ولن أمنحكما أي طعام لمدة يومين» قالت الأم المسكينة خائفة من نيّة الأطفال

بالشكوى لأبيهم.

- «ولكننا لم نأكل اليوم على الإطلاق يا أمي العزيزة، كما أننا قد ذاكرنا دروسنا جيدًا ويمكنك أن تختبرينا فيها.» أجابها الطفلان من بين دموعهما، فانتحبت آماليا في مرارة.

- «اجلسا ها هنا، وأحسنا التصرّف، وسأذهب الآن لآتي لكم بالعشاء». قالت آماليا وذهبت إلى حيث يرقد زوجها.

تفاجئت آماليا بقدر الهدوء الذي وجدته على ملامح زوجها النائم، وكأنه يعيش حلمًا مميزًا منحه قوة وسلام. تنفست آماليا قليلا من الصعداء ودعت ربّها أن يساعدها في محنتها المريعة. جلست آماليا جواره لما يقارب الساعة، يغطّ هو في نوم عميق، وتنظر إليه وهي منتحبة في صمت.

- «أمي، أمي، لدينا زائران؛ رجلان غاضبان، وهما يسألان عن أبي». قال الفتي الصغير الذي دخل إلى الغرفة راكضًا.

تغيّر وجه آماليا، ونظرت في يأس إلى زوجها النائم، ثم خرجت.

كان الرجلان الذي أخبر عنهما الصبي هما مسؤولا تحصيل الديون بالمحكمة، وقد أعلنا أنهما بصدد تسجيل كل أملاك مغلّف الكتب وبيعها بالمزاد إيفاء لوصل الدين الذي امتنع عن تسديده.

- «افعلا كل ما ترغبان به، ولكن فضلًا حافظا على هدوء المكان، ولا تخبرا زوجي بأي شيء، إنه مريض وقريب من الموت. ها هي مفاتيح الضيعة بأكملها، وهناك الورشة أيضًا، وهناك تجدان كل العدّة».

بدأ الرجلان يباشران عملهما، حتى وصل كورشينسكي.

- «لماذا أنت مندهشة لرؤيتي؟ ألم أقل لكِ إنني سأصل عمّا قريب؟» قال كورشينسكي لما رأى آماليا بصوت أجش شرير.

- «اخفض صوتك، حبًا بالله، إن زوجي نائم ولم يكد يستريح».

- «يا له من رجل مرفّه، هل وجدتما شيئًا يستحق البيع سيدي المسؤول؟».

- «ليس الكثير».

- «هذا أفضل، لن يستطيع الفكاك إذن مني بهذه السهولة، وأنتِ يا سيدتي، سألاحقك بالديون أنتِ الأخرى، حتى تلحقي به، ألستِ تحبينه بهذا القدر، فلتلحقي به إذن».

- «إلى أين؟».

- «إلى السجن يا سيدتي، أنا رجل فقير ولا أنوي التخلّي عن آخر قرش تدينون لي به».

- «أنت رجل بغيض. لقد تماديت في سفالتك، واخترت وقتًا عصيبًا جدا لتحصل فيه على انتقامك».

- «حسنًا، لماذا توقفتما عن العمل يا سيدي؟».

- «لقد انتهينا من الفحص والتسجيل»

- «انتهيتما؟ كيف ذلك؟ هل دخلتما بعد إلى هذه الحجرة؟» قال كورشينسكي بينما يشير إلى حجرة فرانز.

- «لم نفعل».

- «رحمة بحالنا.» قالت آماليا في غم شديد، «لا يوجد شيء في هذه الغرفة غير حاجيات الرجل المريض ودواؤه، والذي لا تملكون أي حق في مصادرته».

- «سيدي، أنا آمركما أن تفحصا هذه الغرفة، وإلا لن أعتمد التقدير الذي ستمنحونه عن الضيعة».

- «أستحلفك بالله. لا تدخل إليه. إذا أيقظته على هذا الموقف، سوف تقتله، هو لا يعلم أي شيء، ولا يتوقع أن الحال قد وصل بنا إلى الفاقة المريعة التي نعيش».

- «هذا أفضل إذن، سيسمع مفاجأة تسرّه حالًا». قالها الرجل الشرير بمرح شيطاني أفقد آماليا ما تبقى من روحها.

- «سيديّ، قوما بما يتوجب عليكم فضلا» خطا الرجلان خطوتين إلى الأمام.

- «أيها الرجل القاسي، تحلّى ببعض الرحمة! ماذا تفعل؟ إنك تسعى إلى قتله».

- «سيلقى حتفه حينما يأتي أجله».

- «ولكنه بدأ يتحسّن، لقد غطّ في النوم أخيرًا، ارحمنا».

كانت آماليا على وشك أن تُلقي بنفسها تحت أقدام الرجل البغيض متوسّلة، بينما فرك هو يديه في تحفّز ورضا.

- «لماذا توقفتما؟». قال كورشينسكي، خطا الرجلان بضع خطوات أخرى نحو الغرفة، بينما عادت آماليا تتوسل للرجل المريع مستجدية عطفه.

- «هاهاها، هذا حقًا مُسلّي! وكأني مسخّر لكل ما ترغبي فيه. ادفعي الدين، ولا تجعلي شخصي الفقير المسكين يخسر ثروته. أي رجل ذي ثراء فاحش تظنيني لأتخلى عن ألف من الروبلات؟ وفي أي سبيل تحديدًا إن سمحتِ لي بالسؤال؟ من أجل ما لقيته منك.. أتتذكرين يا سيدتي مُغلّفة الكتب؟ لم ترغبي حتى في النظر إلى وجهي الذي خضع إليك وذلّ! والآن!... إنه دوري، أتظنين أن السعادة تدوم أبدا؟ هاهاها... صحيح! حان وقت تحصيل لحظات سعادتك وبالفوائد».

- «تحلى ببعض الشفقة! كررت آماليا توسلاتها».

- «عليَّ أن أفعل، لكن الوقت قد فات الآن، سيدتي. ومع هذا، لنفرض، لنتحلى ببعضها للمرة الأخيرة، اسمعي، يمكن لزوجك ألا يموت غدا، هناك أمر يمكنك فعله، اسمعي...».

انتحى العجوز بآماليا جانبًا وسر إليها بكلمات قليلة.

- «أبدا، هذا لن يكون» رفضت آماليا في إصرار وهبّت في رعب من حيث وقف العجوز وتطايرت من عينيها شرارات غضب وازدراء.

- «قوما بعملكما يا سيديّ»، قال الرجل العجوز مغاضبًا مصطحبًا الرجلين نحو غرفة فرانز.

- «لن أسمح لكم بالدخول» قالت آماليا وقد تسمّرت أمام باب الغرفة.

- «ما تزال الغرفة تحوي بعض الأغراض، والأمر ملزم بفحص وتقييم جميع الممتلكات من أجل تسديد الدين، افسحي لنا الطريق فضلا.»

- «لا تستمعا إليه يا سيديّ، إنه ناقم علينا. يمكنكما العودة في وقت لاحق، ستزعجون رجلًا مريضًا، وتفسدون فرصته الوحيدة في الشفاء».

- «هاهاها، يا له من سبب عظيم لتعطيل عمل حكومي وأمر قضائي». قال العجوز.

- «آماليا، ما هذه الضوضاء التي أسمع؟ تعالي يا آماليا». قال صوت ضعيف فاتر النبرة من داخل الغرفة

- «الرحمة بالله، اصمتوا». قالت آماليا ولبّت من فورها نداء زوجها.

- «لمَ لم يحضر الطبيب حتى الآن؟ أشعر أنني أتحسن بالفعل، فربما بمساعدته أشفى تمامًا عمّا قريب».

- «قريبًا يحضر يا عزيزي».

ظهر الرأس الأشيب للمُرابي قبل دخوله إلى الغرفة، يتبعه الرجلان، الأمر الذي استدعى كل الرعب والغضب الذي ظهر حينها على ملامح آماليا، لم تكن تدري ماذا عليها أن تفعل الآن، ثم فكّرت أن تهرع إليهم جميعًا وتمزقهم شر ممزّق، وفكّرت بعدها أن تسقط راكعة في مزيد من استدجاء وتوسّل.

- «أهلا بك سيد جوزيف كازيميروفيتش! إنها المرة الأولى التي تعودني فيها منذ رقدت. أشكر زيارتك».

- «إنني أتمنى أن تمنحك زيارتي من فيض السعادة والهناء».

- «هذا شعوري الدائم نحو زيارتك لنا، لقد عددتك دائما صديق عزيز».

- «عزيزي مغلّف الكتب، وما الذي يجعلك تظن أنني صديقك؟ هل تظنني جئت أرقد بجوار سريرك لأشاركك آلامك؛ لا، لست رجلا مسكينًا يضيّع وقته في مثل هذه التزّهات، جئت هنا لإتمام أمر هام».

- «ماذا عساه قد غيّر نبرتك إلى تلك الدرجة المُهينة يا سيدي جوزيف كازيميروفيتش؟».

- «لا شيء، ربما يمكنك أن تسأل زوجتك، هل تعلم مثلا؟».

نظرت آماليا إلى المرابي العجوز بعيون جاحظة

- «هل تعلم يا سيدي المحترم»، أكمل الرجل العجوز بنبرة باردة، «أنني قد جئت للاستيلاء على ضيعتك؟»

- «كيف ذلك؟» سأل المريض بنبرة حائرة مرتعبة.

- «استعد للسجن يا سيدي مغلّف الكتب». أكمل المُرابي بنفس النبرة القاتلة وهو ينظر إلى آماليا ساخرًا.

- «ماذا تقول؟».

- «لقد أبلغت عن فوات ميعاد الدين المستحق».

- «ولكنك تتذكر أنك وعدت بتأخير ميعاد التسديد».

- «كانت هذه مجرد أحاديث في الهواء، غير موثّقة على الورق، كل ما رغبت فيه أن تمر الأيام حتى يمكنني مطالبتك بالديون حينما تصبح معدومًا، ولماذا لا أفعل يا عزيزتي آماليا؟». أكمل المُرابي العجوز بسخرية مريرة.

- «ولكني آمل أن أشفى قريبا فأستطيع أن أسدد لك دينك، هذا إن لم يكن الأمر كله مجرد مزحة منك».

- «مزحة! تحصيل ألف روبل مجرد مزحة! أنت إذن رجل غبي يا سيدي مغلّف الكتب! فلماذا إذن يكاد أولادك يموتون جوعًا، وأنتِ يا آماليا الجميلة، لماذا إذن تهرعين طالبة اقتراض المال من رجل فقير مثلي! تتظاهرين بالفقر إذن؟».

التفت الرجل العجوز في إثر جملته الأخيرة نحو آماليا بنظرته المستهزئة البغيضة، وقد أحست آماليا حينها باشمئزاز نحوه لم تشعره حتى مع كل فظاعاته قبل هذه اللحظة.

- «آماليا، هل ما يقوله صحيح؟ أخبرني الأطفال أنهم جائعون وأنك تقضين بعض الليالي تعملين خارج المنزل؟ أليس هذا صحيحًا؟» قال فرانز بصوت مرتعش ضعيف.

- «لا يا عزيزي. حافظ على هدوءك». قالت آماليا محاولة أن تحتفظ لصوتها ببعض الحزم وتمنعه من الانهيار.

- «لا تصدّقها. اسمعني، أنا أعلم منك بما يجري في بيتك، سأخبرك بكل شيء، وأنتما يا سيديّ». قال المُرابي موجهًا حديثه إلى مسؤولي تحصيل الديون، «باشرا إكمال مهمتكما. وأنت يا فرانز، استمع إليَّ».

باشر الرجل العجوز غاضبًا بإخبار فرانز عن زيارات آماليا واقتراضها النقود، مستدعيًا كل ما استطاع من التفاصيل المؤلمة والصراحة الفجّة. أخبر الرجل فرانز بالحقيقة واصفًا آماليا بالتي خانت ثقة زوجها وسحقت بهامته الثرى بتوسّلاتها من أجل اقتراض المال، ناهيك عن تسببها في هلاكه بالسجن الذي هو على أعتابه،

وبموت أولاده جوعًا أو تشردهم من بعده. تحدّث كورشينسكي بذات النبرة الساخرة اللاذعة وهو يسترق النظر إلى آماليا متشفّيا، آماليا التي ظلت جامدة طوال فترة حديث كورشينسكي إلا من نظرات يائسة منحتها لفرانز بين الفينة والأخرى، فرانز الذي ظل وجهه يزداد غمًا وغمام بينما كان كورشينسكي يحكي. استنفد الحديث المعذِّب روحه. كان فرانز يعشق آماليا وأطفاله بغير حدود، وكان على استعداد تام للتضحية بروحه في سبيلهم، وفجأة اقتحمت عليه أفكاره خيالات بائسة عن كل العذاب والحاجة التي لا بُدَّ وقد عانوها جميعا، وروعت الفكرة عقله وآلمت روحه المسكينة، كونه ربما قد أثقل عليهم بطلباته ورغباته ومرضه العضال.

وإذ أنهى العجوز حكايته، ضحك بأعلى صوت وأضاف:

- «الأب إلى السجن، والعائلة تتشرّد، مستقبل باهر! عليك أن تشكر زوجتك جزيل الشكر يا سيدي مغلّف الكتب».

- «إذن، إذن.. كل ما تقوله صحيح». قال فرانز بيأس. «زد في عذابي يا سيدي العجوز، هل لديك شيء آخر لتقوله؟ أجهز على حياتي مرة واحدة... إنني أستحق. ولكن لماذا هم؟ لماذا يمسّهم العذاب؟ آه يا آماليا! إنني لا أستحقك. لقد نسيت أنني لم أقدم أي شيء لهذا البيت منذ سقطت مريضًا، حتى أنني لربما قد استوليت على آخر رغيف من الخبز واستأثرت به نفسي جاهلًا. نعم. إنني أستحق كل العذاب الذي تخصني به يا سيدي المرابي، آماليا، هلا اقتربتِ ودعّمت رأسي، أشعر بالاختناق والغثيان».

سقطت رأس المريض على الوسادة. كان يبدو عليه الخوف، ورأسه تحترق من أثر الحُمّى، وعيناه تلمعان بشرارات غضب. لم يستطع فرانز التحدث لدقيقة كاملة، ثم بدأ يهذي بكلمات غير مسموعة تواترت سريعة على لسانه المريض.

- «ماذا فعلت! لقد قتلته!» قالت آمليا في هدوء الصدمة.

- «لم أفعل أي شيء، الموت أمر قدري يحدث للجميع إن آجلا أو عاجلًا».

- «أنت الذي يجب أن يموت» قالها المريض، وتسبب في فزع شحب له وجه كورشينسكي، ذلك أن فرانز قد نطقها بصوت وعزم مريعان. سرعان ما استعاد العجوز رباطة جأشه وقال للرجلين:

- «هل انتهيتما يا سادة؟».

- «منذ وقت طويل يا سيدي».

- «علينا أن ننصرف إذن لتناول الغداء، وداعًا يا سيدي مغلّف الكتب، علّك ترتاح قريبًا في منزل جديد تنتقل إليه».

- «في السجن، في السجن!» صرخ المريض في رعب بينما رفع جسده عن السرير.

- «لتهدأ يا فرانز، ارقد يا عزيزي» قالت آماليا.

ظلت حالة المريض تنهار من أسوأ لأسوأ

صلّت آماليا ودعت بحرارة وحماس، كانت عذاباتها تتضاعف، كانت تشهد حياة زوجها تفنى بالتدريج أمام ناظريها، وليس في وسعها أي مما يمكنها فعله لإنقاذه. قضت أيامًا ولياليَ بجوار سرير المريض، جافاها النوم وعافت نفسها الطعام، ولم تتفاعل حتى مع صراخ أطفالها من الجوع. بحلول اليوم الخامس على واقعة ظهور المُرابيّ العجوز في منزلهم، جلست آماليا تصارع أفكارها بجوار سرير زوجها.

كانت أفكارها حزينة بائسة. «ربما هذا هو يومه الأخير»، فكّرت، ربما التصرف سريعًا قد يعيده إلى الحياة، إن مرّ هذا اليوم فهي النهاية؛ وإن استطعنا استدعاء كل الأطباء، وبذل كل عزيز لمساعدته، وأنفقنا حتى مليونا من الروبلات، إن مر يومه الأخير هذا فسيكون كل هذا بلا فائدة. «آخر يوم، آخر ساعة، آخر دقيقة». كادت الدموع تخنقها، حسمت آماليا أمرها واقتربت من صدر زوجها الذي كان في ما يشبه الغيبوبة الكاملة، وفكّت عن عنقه السلسلة الذهبية. «سامحني يا إلهي، وساعدني»، نطقت آماليا بدعوتها الأخيرة تلك وخرجت جريًا إلى الشارع.

كانت الساعة حوالي الثامنة مساء، وقد بدت حجرة المَرابي على حالها، وإنما مظلمة دون أي أثر لضوء. كانت الحجرة فارغة تمامًا، ولكننا نستطيع أن نخمّن وجود المُرابيّ العجوز في منزله من العصا والقبعة الراقدتين على الطاولة. يظهر من خلف الستار ضوء خافت، ثم صوت خفيض، ثم يظهر كورشينسكي الخائف من وراء الستار فجأة وبيده شمعة. يذهب العجوز حتى الباب ويعالج قفله ثم يسمح لآماليا بالدخول، كانت شاحبة وتقوى ساقيها بالكاد على حملها من أثر الإرهاق والانفعال. بصدفة بحتة أو غيرها، اهتزّت الشمعة في يد كورشينسكي وانطفأت.

- «تفضّل، لقد جلبت لك ما يمكن رهنه، أعطني بعض النقود مقابله إذن، إن زوجي مريض، وسأخرج من هنا بالنقود لاستدعاء الطبيب، عجّل بها سيد كورشينسكي» قالت مغلّفة الكتب بكلمات متعثّرة.

- «لترتاحي قليلًا يا ضيفتي العزيزة، لن يموت زوجك بهذه السرعة. دعينا نتحدث قليلا، ألم أخبرك أنكِ لا بُدَّ عائدة لزيارتي؟».

- «ليس هناك وقت. أخبرتك بذلك بالفعل، والآن قل لي هل ستعطيني نقودًا أم لا؟».

- «هاهاها، بالطبع، سيدتي. أنا رجل فقير، كيف يمكنني العيش إن رفضت إقراض الآخرين المال.. على كل حال، إذا كان الغرض الذي جلبتِ جيدًا بما يكفي، وإذا اتفقنا على الشروط..».

- «ما هي الشروط، تكلّم من فورِك».

قبض الرجل على يد آماليا، مُصافحًا إياها بشدة.

- «آن الوقت أن نتصالح يا سيدتي» ثم صافح يدها مجددًا، سحبت آماليا يدها بقوّة وابتعدت عنه في حدّة، وظهرت شرارات غضب في عيون العجوز.

- «رجل دنيء. لقد قادني اليأس وحده إليك. لو كنت أعلم مكانًا آخر أجلب منه نقودًا في هذه الساعة، لركعت على ركبتي طلبا له، وما لجأت لرجل شرير، ذي روح مريضة مثلك».

- «لست شريرا يا سيدتي» قاطعها كورشينسكي. «لا أقتل الناس ليلا، ولا أخدعهم بألاعيب الحواة، ولا أصادر أموالهم بوصولات زائفة؛ لم يتم تغريمي يومًا مقابل أي مخالفة قانونية، ولم أستدع يومًا إلى محكمة. لو كان بيننا شاهد على حديثك، لدفعت ثمن إهانتك لي غاليا».

- «لقد أتيت إليك لسبب وحيد. وقتي ثمين للغاية، هل ستمنحني نقودًا أو أرحل؟».

توجهت آماليا نحو الباب متألمة، تصارع أفكارها، وتفرك يديها في انفعال واضح، فقد عذّب العجوز روحها برد فعله البطيء غير المبالي.

- «انتظري يا سيدتي، نعم. أنتِ في حاجة إذًا إلى بعض المال».

- «يا إلهي، ألم أخبرك أن زوجي سيموت دون مساعدة الطبيب!».

- «أعترف أنني حقًا لا أرغب في منحك أي نقود بعد فاصل الإهانة الذي سمعت منك، لكن لدي قاعدة... لا أرفض منح المال أبدا مقابل غرض جيد. دعيني أرى هذا الشيء الصغير الذي تحملين، يا له من كنز صغير».

أشعل الرجل الشمعة، وسلمته آماليا السلسلة بيد مرتجفة.

- «حسنًا.. هي ليست ثقيلة، وإنما ضخمة على كل حال، يمكن أن أمنحك في مقابلها مائة روبل، إن كان هذا ذهبًا خالصًا». قال المُرابيّ وهو يحاول تخمين وزن القطعة باستخدام كفّه. «سنرى!»، ثم قرّب الشمعة من السلسلة، وجلس يفحصها لبضع دقائق قبل أن يهتف مأخوذًا: «من أين حصلتِ على السلسلة يا سيدتي؟»

- «من زوجي».

- «ومن أين حصل عليها زوجك؟».

- «إنها ملكه، كنزه الغالي الذي سيفترق عنه حتى آخر عمره، لقد أوصلتنا لهذا الحال الذي جعلني أسرق أعز ما لديه، وأحرمه من صورة والديه الراحلين بينما يرقد في انتظار الموت».

نظر العجوز إلى السلسلة مجددًا.

- «هل أنتِ متأكدة أن هذه هي صورة والديه حقًا؟».

- «نعم. جميع معارفنا يعرفون أن كنيته لا تعود لوالده. ولكن حبًا بالله يا سيد كورشينسكي، بينما نحن هنا نتحدث، قد يرحل في أي لحظة، لقد تركته مشارفًا على الموت».

- «هيا بنا، هيا، سأفعل كل شيء من أجل أن يسترد عافيته».

صرخ المُرابيّ فجأة واتجه نحو الباب مسرعًا تلاحقه آماليا.

كان كورشينسكي متأثرًا للغاية، وكانت تظهر شديد انفعالاته على وجهه، بدرجة ربما لم تختبرها ملامحه من قبل. دخل كورشينسكي سريعًا إلى منزل مغلّف الكتب تتبعه آماليا.

- «أمي، أمي، أين ذهبتِ؟ لقد نادى والدي اسمك مرارًا، ثم تأوه، والآن هو في حال مريعة، إنه لا يتكلم، لا يتحرّك، ولا يتنفّس حتى. لقد شحب وجهه للغاية». صرح ابن فرانز الصغير فور أن دخل كورشينسكي وأمه من الباب.

- «لقد مات، مات!» صرخت آماليا في رعب.

- «مات!» كررها كورشينسكي في أسى.

هرع كلاهما إلى الغرفة حيث رقد فرانز ميتًا. أمسك كورشينسكي بشمعة كانت موضوعة على الطاولة بجوار السرير، قرّبها من وجه الشاب الراحل وراح يتمعن فيه وجهه.

- «إنه.. إنه..» كان الرجل العجوز يبكي بحرقة.

- «لقد قتلته، أنت القاتل»، صرخت آماليا ورمت بجسدها فوق جسد زوجها الراحل تبكيه.

هزّ الرجل العجوز رأسه مرارًا في أسى ويأس، وخرج من المنزل يبكي وينوح في جنون.

بعد أيام قليلة، وفي واحد من المنازل الخمسة في شارع فاسيليفسكي، تحديدًا بالدور العلوي، جرى المشهد التالي:

كان هناك من يقوم بفحص محتويات الغرفة وأثاثها ويُملل كاتب تقرير حصر الأملاك بعددها وصفاتها. بدأ التقرير بالجملة التالية «بعد الحادثة المؤسفة التي تعرض لها مالك المنزل من اختلال عقلي وجنون («علينا تحرّي اسمه وكنيته فيما بعد)، وبعد أن هجر منزله، أجرينا الفحص التالي وسرد نتيجته: «أثناء فحص المنزل، قابلتنا مفاجآت عديدة؛ كان أولها عندما قام الفاحص بتمزيق إحدى الوسادات لشكّه في حشوها، وبالفعل، بعد أن تمزقت كسوتها تساقط منها الذهب. حدث نفس الأمر مع حشوة الفراش التي برزت من أطرافها نقود ورقية، وأخيرا، وجدنا حذاء قديم مصنوع من جلد دب، أزاحه الفاحص بقدميه فأصدر الحذاء صوتًا معدنيًا، واتضح أنه ممتلئ بالعملات المعدنية تحت حشوته.

- «يا لها من معجزة!». قال الفاحص سيميون سيمينوفيتش، هذه مفاجآت لم أعهدها في حياتي في أي من محاضر الفحص التي تولّيتها! هـه! نعم، الباب مغلق بقفل، من الضروري أن نفحص ما وراءه، لقد قام العجوز المجنون بإخفاء كل ما يملكه».

- «هذه غرفة مهجورة فيما يبدو» قال الكاتب.

- «ومع هذا علينا فحصها من أجل التقرير الذي سنسلّمه».

بعد أن فتحا الباب، ظهر من خلفه المزيد من الأغراض الثمينة التي طالعها سيميونوفيتش مندهشًا. كانت هناك مرآة ضخمة ذات إطار سميك على الحائط؛ على إحدى الطاولات رقدت ساعة برونزية كبيرة، وبجانبها تراصت دستة من ساعات الجيب. على طاولة أخرى في زاوية الغرفة، تراصت أغراض متفرقة فوق بعضها طالت آخرها سقف الغرفة. وقف دولاب كبير بأدراج متعددة مستندًا إلى الحائط جهة اليسار، داخل خزانته عُلقت معاطف من فرو الراكون والسمور والثعالب الأصلي، وبعض من قطع الملابس الأخرى التي بدت باهظة الأثمان. وجد الفاحص في الأدراج دستة من المعالق الصغيرة وملاعق المائدة، وملاعق الشاي، والعديد من أطقم المائدة الفضية، وأخيرًا الكثير من الخواتم والسلاسل الماسية.

- «العجب العجاب هو ما نرى الآن» قال الفاحص.

- لقد قيل بالفعل أن الرجل المجنون كان مرابيًا. قال الكاتب.

- «آه!، لهذا تجتمع عنده كل... اكتب إذن تفاصيل كل شيء».

عندما انتهيا من تدوين كل ما وجدوه، فتح الفاحص أحد الادراج ووجد هناك أوراقًا

- «اكتب: استمارة، ووصولات، عشرة بالتحديد، وما قد يكون هذا؟». قال الفاحص محاولًا التعرف على كنه ورقة بدت كخطاب. «سنقرأها» أضاف الفاحص.

وبدأ يقرأ:

«لقد اخترت الموت عوضًا عن العيش معك، أعلم أن هذا أمر يسرّك بالتأكيد، ولكن تذكّر أنني سأحملك مسؤولية كل العذابات التي عاينتها بسببك، وذلك يوم أن نلتقي مجددا. غدا سوف أنهي حياتي وأرحل عن وجه الأرض.. وسيبقى ولدنا ضحية الحاجة واليتم، ولكني آمن على حياته وهو في معية ذلك الذي لا أعرفه، أكثر مما قد آمن عليه معك. لن تعرف عنه أي شيء أبدا، لقد وضعت سلسلة حول عنقه بها صورتنا أنا وأنت معًا، علّه يتذكر أمه المسكينة وتكون له في بُعدي سلوى، ولكني قد أخفيت كل شيء عن أصوله، حتى أنني قد غيرت اسمه... دعني أكررها ثانية.. لن يمكنك أن تعرف عنه أي خبر، وهذا هو انتقامي الوحيد الذي يمكنني أن أرد به على كل ما قد قاسيته في حياتي معك».

- «مجددًا، عجيبة من عجائب هذا المنزل!» قال الفاحص، «لا أفهم، لا أفهم أي من هذا!».

- «ماذا علينا إن نكتب في التقرير عن هذا؟».

- «حسنًا! اكتب: خطاب مكتوب بخط اليد، ولا نعلم من الذي كتبه، والآن انه التقرير».

انتهى الفحص أخيرا، ووضع على المنزل علامة انتهاء فحصه من قبل الجهة الحكومية، وذهب الفاحص يتسامر مع صديق له ويحكي عن المعجزات التي تصادفه أحيانًا في مجال عمله الغريب هذا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ليونيد أندرييف

1871 – 1919

لعازر([5])

ليونيد أندرييف

عندما قام لعازر من القبر، بعد ثلاثة أيام قضاها أسيرًا لسطوة الموت الغامضة، وعاد حياً إلى منزله، مَرّ وقت طويل قبل أن يلاحظ أحد غرابته التي جعلت من اسمه فيما بعد مرادفًا للرعب والترويع. كان أصدقاؤه وأقاربه ممتنين للفرصة العظيمة التي أعادته إلى الحياة، فغمروه بكل حنان وأغدقوا عليه اهتمام لا ينضب، وتركزت جُلّ عنايتهم في منحه الوفير من أطياب الطعام والشراب، والأجمل من أفخم الملابس التي صنعت خصيصًا له، دامت فرحتهم به وألبسوه ثوب الهناء والأفراح. عندما جلس لعازر بينهم على المائدة من جديد، يأكل ويشرب، بكوا بدموع ممتنة للمعجزة، ودعوا جيرانهم ليشهدوها؛ معجزة الرجل الذي عاد من الموت.

حضر الجيران وتأثروا بقدر الفرحة التي شهدوها. جاء غرباء من بلاد وقرى بعيدة لتوقير المعجزة. كانوا يملؤون الدنيا صياحًا ويطوفون حول منزل مريم ومارثا([6]) كأسراب النحل.

ظلوا يتحدثون بتفصيل عن كل ما قد تغيّر في وجه لعازر وملامحه وإيماءاته؛ كآثار مرضه الحاد والصدمة التي قد حلّت عليه من عِظَم ما واجه. صحيح أن عملية تحلل جسده الميت بينما كان في القبر قد توقفت بفعل المعجزة، غير أن الأجزاء التي تضررت بفعل نفس العملية لم تعد أبدًا لسيرتها الأولى؛ فترك الموت من آثاره على وجهه وجسده ما جعله أشبه بلوحة هجرها الفنان قبل أن ينهيها. سطع لون أزرق باهت من وجه لعازر، وتحديدًا تحت عيونه، وفي الفجوات التي حلّت محل خديّه، وحتى أصابعه، والتي تحول اللون تحت أظفارها ـ التي طالت بفضل مكوثه الطويل في القبر ـ للون قرمزي داكن. تناثرت بضع شقوق غلب عليها اللون الأحمر، على شفتيه وكامل جسده، تكونت تحت تأثير جسده الذي انتفخ بعد الموت، وبدا كما لو كسته طبقة لامعة من طمي رقيق، كما زاد وزنه بشكل ملاحظ. كان جسده منتفخًا للغاية وصدرت عنه رائحة رطبة نتنة من أثر التعفّن. غير أن رائحة الجثث التي بدت ملتصقة بملابسه، وبجلده أيضًا في واقع الأمر، سرعان ما زالت عنه، كما خَفّت بمرور الوقت حدة اللون الأزرق في وجهه، وأصبحت التشققات المحمرّة في وجهه أكثر نعومة، على الرغم من أنها لم تختف أبدًا بالكلية. كان هذا هو المظهر العام لـ لعازر في حياته الثانية، مظهرًا لم يره طبيعيًا أبدًا إلا هؤلاء الذين عاصروه وهو مسجي في تابوته.

لم تمتد يد التغيير لوجه لعازر وحده، وإنما لشخصه أيضًا فيما بدا؛ وذلك على الرغم من أن ذلك التغيير لم يثر دهشة أي شخص ممن حوله، ولم يلق أي اهتمام من جانبهم. قبل موته، كان لعازر مرحًا ولا يحمل للدنيا همًا، وعاشقًا للضحك والمزحات اللطيفة غير المؤذية أو المُهينة، ولقد أحبه مُعلّمه([7]) لروحه الخفيفة

الطيبة ورصانته وخلو طبعه من الحقارة أو الميل للكآبة. أما الآن فقد صار حزينًا صامتًا معظم الوقت، لم يقم بمحاولات للمزاح اللطيف نحو أي شخص، بل ولم يتجاوب حتى مع مزحات الآخرين. كانت الكلمات التي يتكلف لنطقها عادة كلمات بسيطة، عادية أو ضرورية، كلمات عدمت كل إحساس أو عمق، تمامًا كالأصوات التي يصدرها الحيوان للتعبير عن الألم، السعادة، العطش أو الجوع. كلمات محدودة لو ما تفوّه رجل بغيرها لقضى طوال حياته دون أن يتعرف أحد على ما يعتريه من أفراح أو أتراح.

وهكذا، كان لعازر جالسًا على مائدة الاحتفال بين أصدقائه وأقاربه، وجهه وجه جثة، حكم الموت عليها زمامه لمدة ثلاثة أيام، بينما كانت ثيابه رائعة واحتفالية، متلألئة بالذهب والأحمر الدامي والأرجواني؛ وبدت سحنته شاحبة خالية من أي تعبير. كان حال لعازر قد تغيّر بشكل مريع وغريب، غير أن أحدًا لم يكتشف هذا التغيّر حتى الآن. استمرت الاحتفالات حوله بجوّها الهادئ أحيانًا ثم الصاخب، وداعبت نظرات الحب الدافئة وجهه الذي كان لا يزال باردًا بفعل لمسة القبر؛ ربتت يدٌ دافئة لصديق على يده بلونها الأزرق الباهت، وعزفت الموسيقى واستُدعي العازفون ولعبوا ببراعة ورقة على الطبول والمزامير، وعلى القانون والقيثارة. سطعت الموسيقى في أرجاء منزل مريم ومرثا السعيد كأنه لحن اشتقت أنغامه من طنين النحل وصرير الجراد وغناء الطيور.

أزاح أحدهم أخيرا الستار، وبنفحة من اهتمام عابر وسؤال عفوي، حطّم الهالة المقدسة وكشف الحقيقة عارية قبيحة في أسوأ صورها. لم تكن لدى صاحب السؤال أي فكرة واضحة عن الهدف من سؤاله حتى نطقته شفتاه بابتسامة تعلوها:

- «لماذا لا تخبرنا يا لعازر عمّا كان هناك؟».

حطّ الصمت على الحضور، وغلبتهم الدهشة. بدوا جميعا كما لو كان قد تطرق إليهم الآن فقط حقيقة أن لعازر قد مات لثلاثة أيام كاملة، ولقد استمروا في النظر إليه بفضول في انتظار إجابة. غير أن لعازر لم يتفوه بحرف.

- «ألا تريد إخبارنا؟». سأل السائل بدهشة، «ألهذا الحد كان الأمر مرعبًا؟».

خرج سؤاله الثاني تمامًا كما الأول الذي لفظته شفتاه قبل أن يعيه عقله، ذلك لو أنه قد وعاه أولًا لما دبّ الرعب في قلبه الآن بعد أن نطق به. كان صبر الحضور قد نفد وانتظروا كلمات لعازر وشعور بالكرب يعتريهم، ولكنه أخفض عينيه وظَلّ صامتًا، باردًا وعبوسًا. ومجددًا وكأنها المرة الأولى، لاحظ الجميع زرقة وجهه وبدانته المثيرة للاشمئزاز؛ وقد رقدت يد لعازر الزرقاء البنفسجية على الطاولة تتبعها نظرات محدّقة وكأنهم ينتظرون منها الإجابة. كانت الموسيقى ما تزال تصدح في الأجواء حتى حاذاها؟؟ الصمت المفاجئ، فبدت كما شعلات من الفحم متأججة انطفأت بفعل مياه غزيرة صبّت عليها من دون ميعاد. صَمَتَ صوت المزمار، وتبعته أصوات قرع الطبول ونغمات القيثارة، وغرق المكان في الصمت الرهيب كما لو قد انكسرت نوتات الموسيقى إلى شذرات وماتت الأغاني، قاطعت مقطوعة الصمت نغمة حزينة مرتعشة صدرت عن القانون، ثم مجددًا؛ عاد الصمت.

- «إذن أنت لا ترغب في التحدث؟»، كرر الضيف الذي لم يستطع السيطرة على فمه ولسانه الثرثار.

استمر لعازر جالسًا بلا حراك، ورقدت يداه البنفسجية المزرقّة على الطاولة بلا حراك. بدأ لعازر يتحرك بعد فترة، فشعر الجميع بالراحة لما بدا من انتباهه ورفعوا عيونهم إليه. نظر لعازر القائم من الموت للحضور بنظرة ثقيلة مرتعبة وملأ عيونه من تفاصيل المكان.

حدث ذلك الموقف في اليوم الثالث لقيامة لعازر من القبر. تكوّن بعدها انطباعًا رئيسيّا لدى معظم من عاصروه أن نظرته المحدّقة كانت نظرة رجل تحطّم، لكن ما استطاع أحد أبدًا أن يفسّر الرعب الذي رقد صامدًا في حدقتي عينيه السوداوين، لا هؤلاء الذين دمّرتهم نظرته المرتعبة تلك، ولا حتى أولئك الذين ظلوا ينعمون بربيع الحياة الغامضة تماما كالموت، واستطاعوا تجنّب النظر إليه. لطالما بدا لعازر هادئًا وبسيطًا، وكنت لتشعر برغبته الحقيقية في ألا يخفي شيئًا وممانعته في نفس الوقت للإخبار عن أي شيء. كانت نظرته باردة، كما لو كان شخصًا لا تربطه أي علاقة بكل ما هو حيّ، ولكم صادفه أشخاص ومرّوا به غير مبالين ولم يلحظه منهم أحد، ثم اكتشفوا فيما بعد برعبٍ ودهشة، أن ذلك البدين الهادئ الذي مَرَّ بهم وربما لمستهم أطراف ملابسه الفاخرة هو ذاته لعازر القائم من الموت.

لم تتوقف الشمس عن السطوع يومًا حين كان يواجهها لعازر بنظراته، ولا جفت الينابيع، وظلّت السماء على حالها، زرقاء بلا غيوم؛ غير أن كل من قد تعرّض لبهاء نظرته الغامضة لم يستطع بعدها الشعور بوجود الشمس، ولا سماع صوت مياه الينابيع الرقراقة، ولا التعرّف على سماء بلاده. كان الذي يتلقّى النظرة عادة ما يشرع في البكاء بمرارة، أو في تمزيق شعره في يأسٍ عظيم ثم ما يلبث أن يصرخ بجنون مستجديًا النجدة. إلا أن أغلبهم كان يسير حثيثًا بهدوء نحو الموت البطيء الذي كانت تستمر أعراضه في العادة لسنوات طوال. كانوا يموتون أمام عيون الجميع وفي حضورهم، شاحبين، منهكين وكآبة تعلو وجوههم، كشجرة على قمة جبل صخري تذوي وتذبل بهوادة. عاد إلى الحياة بعض أولئك الذين صرخوا بجنون أما الآخرين فلم يعودوا أبدًا.

- «إذن أنت لا تود إخبارنا يا لعازر بما رأيته هناك؟».

رددها السائل للمرة الثالثة. غير أن نبرته كانت مختلفة هذه المرّة؛ كانت خافتة، وقد ظللت عيونه سحابة ملل رمادية، انتقلت ذات الغمامة الملولة لعيون الحاضرين وغطّت وجوههم كالغبار، وظلّوا يتبادلون النظر إليها فيما بينهم بما يشبه الغيبوبة، ولم يستطع أي منهم أن يتذكر سبب حضورهم إلى المنزل وجلوسهم إلى الطاولة الفخمة.

صمت الجميع، وبادرهم شعور بأن ربما عليهم العودة إلى المنزل، ولكن إحساس الملل والكسل اللزج قد ثبّتهم تمامًا حيث جلسوا، متفرقين كأشعة خافتة سطعت في سماء الليلة.

أما عازفي الموسيقى فقد شرعوا من جديد في مهمة العزف التي دُفع لهم المال مقابل إتمامها، وبدأت أنغامهم الحزينة تصدح من جديد وتتكرر، واستمع الضيوف لها متعجبين. ما هو الداعي لكل ما يفعله هؤلاء العازفين من شد للأوتار ونفخ في الأبواق مصدرين تلك الأصوات الغريبة المتنوعة؟

- «كم يعزفون بشكل سيء!». قال أحد الحضور.

شعر العازفون بالإهانة وغادروا. بدأ الضيوف في الانصراف واحدًا تلو الآخر، فقد حل الليل أو أوشك. وبينما بدأت هالة الظلام تتساقط من حولهم، وقد بدا كما لو كان يمكنهم التنفس من جديد، ظهر طيف لعازر أمامهم في هيبة وهيئة مفزعة ـ وقف هناك بوجه الجثث؟؟ الأزرق وبذلة العرسان الفخمة المتألقة، وبعيون ونظرة باردة محدّقة يترصّد فيها الرعب والفزع. تخشّب الجميع كما لو تحولوا إلى تماثيل من حجارة. حاوطهم الظلام وتبدّت لهم في غماره الرؤية المفزعة والصورة الخارقة للإنسان الذي عاش أيام ثلاثة بصحبة الموت وتحت سطوته.

كان ميتًا لثلاثة أيام؛ لثلاثة أيام شرقت فيها الشمس وغربت وهو ما يزال ميِّتا، لثلاثة أيام لعب فيها الأطفال، وقرقرت المياه من ينابيعها وارتفع غبار الطريق بفعل الرياح عاليا ـ ولكنه كان ميتًا. والآن ها هو يعيش مجددًا وسط الناس -يلمسهم- ينظر إليهم، وعبر حدقتيه السوداوين التي كانتا أشبه بألواحٍ زجاجية داكنة، كان المجهول العصي على الفهم والتفسير يرد إليه النظرة.

لم يهتم أحد لأمر لعازر، ولم يبقَ أحد من أصدقائه أو أقاربه لملازمته، وزحفت الصحراء العظيمة التي أحاطت بالمدينة المقدسة حتى عتبة منزله، ودخلت حتى صحنه وافترشت سريره، كالزوجة المخلصة.

لم يهتم أحد بلعازر، وهجرته أختيه؛ مريم ومرثا، الواحدة تلو الأخرى. ظلت مارثا متمسكة برغبتها في ألا ترحل عنه لوقت طويل، لأنها علمت أنه لا يملك سواها ليعتني به ويطعمه، أشفقت عليه مرثا كثيرًا، ولكم بكت وتضرّعت، ولكن في إحدى الليالي، وبينما كانت الريح تعوي وتدور رُحاها عبر الصحراء، وأشجار السرو تنحني من أثر شدتها فوق الأسطح، ارتدت مرثا ملابسها بهدوء ورحلت. سمع لعازر في الغالب صوت الباب الذي أغلق بشدّة ـ والذي لم ينغلق تمامًا فيما يبدو لأن الريح ظلّت تعبث به باستمرار، تفتحه وتردّه. لم يقم لعازر على الرغم من ذلك، ولم يخرج من المنزل، ولم يحاول حتى اكتشاف السبب وراء الأصوات الصادرة عن الباب واهتزازه.

ظلت الريح تدفع أشجار السرو للانحناء على السطح وطرقه برأسها، وظلّت تعاود فتح الباب وردّه، الأمر الذي منح للبرد وصقيع الصحراء إذنا مخوّلا بدخول البيت. خشاه الجميع كما يخشى العوام الأبرص، وأرادوا أن يضعوا جرسًا حول عنقه ليحذروا لقاءه أو الاجتماع به، ولكن أحد الأشخاص الآخذين في الشحوب، لفت نظرهم إلى كم سيكون مرعبًا إن صادف مرور لعازر ذات ليلة تحت أحد النوافذ وبات الناس في بيوتهم يستمعون لهذا الصوت المريع، وافقه جميع الناس الآخذين في الشحوب على عدم نفعية فكرة الجرس.

نظرًا لكونه لم يحاول مساعدة نفسه، فكان احتمال موته من الجوع قائمًا بشدة، لولا جيرانه الذين، على رعبهم، قد اعتادوا منحه بعض الطعام. كانوا يبعثون إليه الطعام عبر أطفالهم. لم يخشه الأطفال، ولا سخروا منه كعادة الأطفال في توجيه قسوتهم البريئة غير الواعية نحو المختلفين البائسين في الحياة. لم يُظهر الأطفال أي اهتمام نحو لعازر على الإطلاق، وبادل هو قلة اهتمامهم بالتجاهل. لم يحاول حتى التربيت على أيديهم الصغيرة الداكنة أو النظر لعيونهم البسيطة المتلألئة.

مهجور تحت رحمة الزمن والصحراء الشاسعة، انهدم بيت لعازر وتخرّب، وفرّت عنزاته الجائعات لمحيط جيرانه بحثًا عن رعاية. أصبحت حُلته الفاخرة قديمة ومهترئة. كان يرتديها طوال الوقت كاملة كما ارتداها في ذلك اليوم السعيد حين عُزفت الموسيقى. لم يكن يرى فرقًا بين قديم وجديد، بين رث وسليم. اختفى ظل الألوان الساطعة لبذلته، وحوّلت الكلاب الشرسة وأشواك الصحراء حُلته البرّاقة إلى أثمال.

في الظهيرة، وبينما سطعت الشمس بحرارتها القاتلة لكل أشكال الحياة على سطح الأرض، شمس قاسية دفعت حتى العقارب للاحتماء منها أسفل الصخور، تتلوى أجسادهم من رغبات لدغ مجنونة، جلس لعازر دون حركة رافعًا وجهه المزرقّ ولحيته الشعثاء المغبّرة في مواجهة أشعتها. في ذلك الزمان، حينما كان الناس لا يزالون يتحدثون إليه، سألوه ذات يوم:

- «يا لعازر المسكين، هل تستمع حقًا بالجلوس تحت الشمس والنظر إليها».

- «نعم، هذا أمر يمتعني»، أجابهم.

يبدو أن الأيام الثلاثة في القبر كانوا قارسي البرودة، وشديدي الظلمة، حتى أنه ما عاد شيء على الأرض شديد الحرارة بما يكفي ليبعث الدفء في جسد لعازر، أو شديد السطوع ليفيض من نوره على عيون لعازر المظلمة الحزينة. كان هذا هو كل ما خطر ببال السائلين بعد إجابة لعازر، الذين ما لبثوا أن تنهدوا إثر تداعي أفكارهم ثم غادروه.

وكلما اقترب الجرم السماوي شديد الاحمرار من الأرض غاطسًا نحو مغاربه، سار لعازر في الصحراء متتبعًا إياه، كما لو كان يسعي للحاق به. كان لعازر يمشي دائمًا في اتجاه غروب الشمس، أما هؤلاء الذين حاولوا تتبع مساره بهدف اكتشاف ما يفعله طوال الليل، فقد عادوا من رحلتهم بصورة لا تُمحى انطبعت في عيونهم عن ظل طويل ممتلئ الجسد يمشي في مواجهة قرص الشمس الأحمر. لم يستطع أي منهم أن يكتشف أبدًا ماذا كان يفعل لعازر في الصحراء طوال الليل، فقد كانوا يعودون من رحلة تتبعه دومًا مطاردين برعب الليل وظلامه، وبصورة لا تغرب عن خيالهم؛ الظل الأسود مقابل القرص الأحمر. وكما الوحش الذي أخذ يفرك وجهه بمخالبه بقوة، لا يعي كيف عدمت عيونه الرؤية، ظل القوم يفركون عيونهم ليتخلصوا من صورة الظل، غير أن لعازر قد منحهم رؤية لا تنمحي ولا يزول أثرها فيما يبدو إلا بالموت.

على الرغم من شهرة لعازر، كان هناك أناس قد عاشوا في بلاد بعيدة ممن لم تقع عيونهم عليه من قبل. اقترب هؤلاء من الرجل الجالس تحت الشمس واندمجوا في حوار معه، بفضول صفيق يغذّيه الخوف ونفوسهم العابثة. كان مظهر لعازر قد تغيّر للأحسن عندها وما بات مخيفًا كما كان. للوهلة الأولى استنكر القوم غباء سكان المدينة المقدسة، رافضين روايتهم عن لعازر، وإنما بانتهاء الحوار القصير مع لعازر، وحين مرّ بهم أهل المدينة المقدسة وهم جلوس، وتعرفوا إليهم على الفور من مظاهر جلّية بادية عليهم، قالوا:

- «ها هم قوم آخرون قد جنّوا في أثر نظرة لعازر»، ومطّوا شفاههم في شفقة وضربوا كفًا بكف.

وعلى نفس المنوال، جاء لزيارة لعازر محاربون شجعان لا يعرفون الخوف في دروع تقرقع، ورجال في عمر الشباب يتقافز في صدورهم صدى الأغاني والضحكات، ورجال أعمال متحمسين تتراقص بين أياديهم الأموال، وحتى خادمي المعابد المتجبرين، زاروه ووضعوا حراسهم على أبواب منزله ـ ولكن أحدًا منهم لم يعد من الزيارة كما كان قبلها. انقض ظل مُريع على أرواحهم فامتلكها، وعدّل نظرتهم للكون من حولهم فما عاد يشبه عالمهم المألوف.

وصف أولئك الذين تعرّضوا لنظرة لعازر التغيير الذي اعتراهم؛ أولئك الذين لم يعدموا بعد كل رغبة في حديث:

أضحت كل الأشياء التي يمكننا رؤيتها بعيوننا أو لمسها بأيادينا فارغة وخفيفة وشفافة، كما لو كانت ظلالا شاحبة يمكنك لحظها في الظلام؛ ظلام يلف الكون بأكمله، لا يستطيع تبديده لا الشمس ولا القمر ولا النجوم، ظلامًا احتضن الأرض كذراعيّ أم وألبسها ستارًا أسود يمتد طويلًا بغير حدود.

ظلام يتخلل كل شيء، حتى الحديد والأحجار، وتصبح كل ذرة في الجسد الذي انفصل عن العالم وحيدة، ثم يتخلل الظلام ذرات الجسد ذاتها فيشتتها، وتصير كل وحدة تشرّدت من كل ذرة في الجسد وحيدة، وحدة تغلّف الكون لا يعوضها بهاء الشمس، ولا ضياء القمر أو نجوم السماء، وحدة بلا حدود، تفرّق كل شيء وتبعثره؛ الجسم عن الجسم، والذرات عن الذرات.

تغرس الأشجار جذورها في الفراغ وتصبح هي نفسها فارغة غير ذات ثقل؛ ترتفع أطياف المعابد والمنازل في الفراغ، كما هو حال الأشجار؛ فارغة. وفي الفراغ يتحرك الإنسان المعدي بنظرة لعازر في الفراغ بلا مبالاة، ويصبح هو ذاته فارغًا وخفيفًا، تماما كظل؛ لم يكن للوقت أي حساب، وقد أُدمغت بداية الأشياء ونهايتها دون فاصل أو بيان. في ذات اللحظة التي قد يلحظ فيها أحدهم قيام مبنى جديد، ويسمع صوت المطارق الرتيب تشيّده، في ذات اللحظة، يمكنه رؤية أنقاضه حيث يجلس الفراغ قابعًا بين أركانه. قد يشهد أحدهم ميلاد إنسان، وشموع جنازته تضوي فوق جبهته، ثم تنطفأ الشموع ويحل الفراغ محل وجودها والإنسان نفسه».

مُقيدٌ، مُحاط بالظلام والفراغ، يرتعش الرجل بيأس أمام ذلك الرعب اللا نهائي. هكذا تحدث أولئك الذين لم يعدموا بعد رغبتهم في الحديث بعد أن أصابتهم نظرة لعازر، وأكثر من هذا كان ليصل إلينا عن معاناتهم، فقط لو استطاع أولئك الذين لم يرغبوا في الكلام أن يتحدثوا، هؤلاء الذين لاقوا حتفهم في صمت.

في نفس الوقت، وفي روما، عاش نحّات شهير، اعتاد صنع تماثيل للبشر وللآلهة الرومانية من الطمي، الرخام، والبرونز، وكان من بِدع صنعهم ما جعل الناس تعدّهم من الفنون الخالدة. غير أن الفنان نفسه حمل نحو إبداعاته شعورًا مغايرًا؛ فقد كان يرى أنه ما زال في هذا الكون جمالًا لم يستطع بعد أن يحاكيه. «لم أستطع بعد احتواء بريق القمر، ولم أرتو حتى الآن من أشعة الشمس، تماثيلي الرخامية بلا روح، والبرونزية بلا حياة».

اعتاد السير بهوادة في الطريق مستأنسًا بضوء القمر، يومض رداءه الأبيض تحت شعاعه، عابرًا تحت ظلال أشجار السرو. في الطريق، اعتاد العابرون أن يصيحوا فيه قائلين: «ذاهبٌ لجمع ضوء القمر يا أوريليوس؟ لماذا لم تصحب إذن بعض السلال؟»، وحينها كان يجيبهم ضاحكًا ومشيرًا نحو عيونه «هاكم سلالي التي أصب فيها من ضوء القمر وأشعة الشمس». وكانت تلك حقيقة؛ كان ضوء القمر يلمع في عينيه، وتشرق فيهما الشمس، إلا أنه لم يستطع يومًا ترجمة كل ذلك باستخدام يديه وعبر تماثيله الرخامية، وكانت تلك معاناته؛ نعمته ونقمته.

كانت أصول أوريليوس تمتد لسلسلة طويلة من النبلاء، وكان لديه زوجة طيبة وأطفال، وكان شديد الإيمان بالكمال.

عندما وصلته الشائعات عن قصة لعازر، استشار زوجته وأصدقاءه وقرر القيام برحلة حتى بلاد لعازر ليلقي نظرة على معجزة ذلك الذي قام من الموت.

شعر أوريليوس قليلًا بالملل من طول رحلته، وآمل أن يشحذ الطريق انتباهه المنهك. لم يكن يخيفه ما أخبره الناس عن أمر القيامة من الموت، صحيح أن الموت كان كثيرًا ما يراود أفكاره، لكنه لم يكن يحبه، ولم يكن أيضًا يحب هؤلاء الذين يحاولون ربطه بالحياة. على هذا الجانب حياة جميلة، وعلى الجانب الآخر موت غامض، هكذا كان يحب فصل الأمرين عن بعضهما؛ مؤمنًا أن الإنسان لن يبلغ في حياته أهنأ من قدرته على الاستمتاع بالحياة وجمالها بينما هو على قيد الحياة ما يزال. وقد كان لأوريليوس أمنية ورغبة صادقة في أن يستطيع إقناع لعازر بوجهة نظره، ولربما حينها تُرد له حياته وتُستعاد كما استعاد جسده. ناهيك عن أنه قد عَدّ الأمر سهلًا للغاية، ذلك لأن الشائعات حول الرجل المخيف الغريب القائم من الموت، لم تخبر في واقع الأمر عن الحقيقة الكاملة حوله، وإنما اهتمت فقط بمنح تحذير غامض عن شيء فظيع يحدث للقوم بعد لُقياه.

بينما كان لعازر يستعد للقيام من فوق صخرة ليبدأ رحلته المعتادة نحو الصحراء بعد غروب الشمس، اقترب منه الثري الروماني وصاح به مناديًا: «لعازر».

لمح لعازر النبيل، بوجهه المعتد بنفسه، والمجد يسطع من ملامحه، رأى لعازر ملابس الروماني البرّاقة، وأحجارها الكريمة التي لمعت وتلألأت تحت الشمس. لفحت أشعة الشمس الحمراء وجه النبيل فمنحت رأسه ووجهه لونًا برونزيا قاتمًا. عاد لعازر لمكانه على الصخرة، وخفض عينيه منهكًا.

أينعم يا لعازر المسكين، كما يُقال؛ لست بأي حال بهجة للعين»، قال الروماني بهدوء بينما يلعب بسلسلته الذهبية. «حتى أنك تملك مظهرًا مخيفًا يا صديقي المسكين، لم يتكاسل الموت عن مهمته الأثيرة فيما يبدو حين وقعت في براثنه، ولكنك بدين جدًا، كبرميل، والبدناء لا يكونون أشرارًا أبدًا، ولا أدري حقًا لم يخافك القوم لهذه الدرجة؟ هل تدعوني لقضاء الليلة في صحبتك؟ لقد تأخر الوقت وليس لدي مكانا أبيت فيه».

لم يسأل أحدًا لعازر المبيت في منزله من قبل.

- «ليس لدي سرير». قال لعازر.

- «لدي روح محارب، لذلك أستطيع النوم جالسًا»، ردّ الروماني، وأضاف: «سنوقد بعض النار».

- «ليس لدي نار».

- «إذن سنجلس في الظلام سويّا ونتبادل الحديث كصديقين، أعتقد أننا يمكننا إيجاد بعض الخمر».

- «ليس لدي خمر».

- «الآن أفهم لماذا تبدو مكتئبًا، ولا تعجبك فرصتك الثانية في الحياة. ليس لديك شيء! حسنًا إذن، سنبقى على حالنا كما نحن نتحدث، وعلى كل حال، هناك بعض المواضيع التي يمكننا التطرق إليها وستجعل رأسينا يدور تمامًا كتأثير الخمر فيها».

بإيماءة من رأسه، انصرف العبد خادم الروماني وتركه وحيدًا مع لعازر. ومرة أخرى شرع النحّات في الحديث، ولكن الأمر بدا كما لو كانت روح كلماته قد غادرتها مع الشمس نحو المغارب، وأصبحت الكلمات ذاتها شاحبة وفارغة، كما لو كانت مهزوزة تعتمد على دعائم غير ذات اتزان، كما لو كانت تترنح وتسقط إلى الأرض، ثمِلة بخمر الكرب واليأس. وظهرت الاختلافات بينها في إشارة لفراغ عظيم وكآبة مهيبة.

- «الآن أنا ضيفك يا لعازر، ولا يمكنك أن تسئ إليَّ» قال الروماني، «فحسن الضيافة واجب حتى على هؤلاء الذين قضوا أيامًا ثلاثة في ظلمة القبر. أخبرت أنك قد قضيت ثلاثة أيام في القبر. لا بُدَّ أن المكان كان باردًا هناك، وقد جلبت معك من القبر هذه العادة السيئة في العيش بدون نار أو خمر. ولكنني أحب النار، إن الظلام يحل سريعًا جدا في هذه الناحية... هناك خطوط مثيرة للإعجاب تظلل حاجبيك وجبهتك: تبدو تمامًا كطبقة الرماد التي تعلو أنقاض قصر تهدم إثر زلزال أرضي.

ولكن لماذا ترتدي هذا الرداء الغريب القبيح؟ لقد رأيت عرسانًا في بلادكم يرتدون نفس الزي ـ هذا الزي الغريب ـ الزي المخيف، ولكن هل أنت حقًا عريس؟».

كانت الشمس قد اختفت بالفعل، وهرعت ظلال سوداء عملاقة من الشرق، كما لو أن أقدامًا عارية ضخمة قد تسابقت على الرمال، وتبعتها نسائم باردة متسللة خلفها على استحياء.

- «تبدو حتى أضخم في الظلام يا لعازر، لقد سمنت قليلًا خلال الدقائق القليلة الماضية. أم أنك، ربما، تتغذّى على الظلام؟ ولكني أود الاستمتاع ببعض النار، شعلة خفيفة، شعلة خفيفة. إلى جانب أنني أشعر قليلًا بالبرد، إن ليالي بلادكم باردة بشكل مريع. لو لم يكن الظلام دامسًا لقلت أنك تنظر إليَّ الآن يا لعازر، نعم، يبدو أنك تنظر إليَّ الآن، تنظر إليَّ، أليس كذلك؟ أشعر بذلك ـ حتى أنك الآن تبتسم».

حلّ الليل أخيرا، وعم الظلام المكان.

- «كم ستكون الحياة جميلة عندما تشرق الشمس غدًا من جديد. أتعلم؟ أنا نحات، أو هكذا اعتاد أصدقائي أن يُطلقوا عليَّ النحات. إنما أنا أبدع من عدم، ولكن الأمر يحتاج لضوء النهار. أمنح الحياة للرخام البارد، وأذيب معدن البرونز فوق شعلة النار، فوق وهج الضوء، لماذا لمستني؟».

- «تعال» قال لعازر، «أنت ضيفي». دخل لعازر وضيفه إلى المنزل، وسقطت ظلال الليل الطويل خلفهما على الأرض.

أخيرًا يأس العبد الروماني من طول الانتظار، وعندما ارتفعت الشمس في كبد السماء قام إلى منزل لعازر. وتحت ضوء الشمس الخارق الذي غمر الغرفة، رأى العبد سيده ولعازر يجلسان سويًا محدّقان في اللا شيء، يلفهما صمت مطبق.

بكى العبد وناح صائحا في سيده: «سيدي، سيدي، ماذا دهاك؟».

عاد أوريليوس في نفس اليوم إلى روما. لازمه الصمت والتفكير طوال الطريق، وصار يراقب كل ما حوله بانتباه شديد؛ الناس، والسفينة، والبحر، كما لو كان يبذل قصارى جهده ليتذكر شيئًا ما. في طريق عودتهم، هاجمت السفينة عاصفة شديدة، جلس أوريليوس أثناء هبوبها طوال الوقت على سطح السفينة يراقب هجمات الموج الغاضب. عندما عاد إلى منزله لاحظ ذويه التغير العجيب الذي صار إليه طبعه، غير أنه قد طمأنهم بجملة واحدة؛ «لقد وجدته».

بدأ أوريليوس العمل بملابسه المتربة ذاتها التي كان ما زال يرتديها منذ بداية رحلته، واستجاب الرخام مطيعًا لدقّات مطرقته. عمل أوريليوس لساعات طوال دون أن يسمح لأحد بمقاطعته أو الدخول إليه، حتى خرج إلى الجميع ذات يوم وأعلن أن آخر إبداعاته قد اكتمل، ونادى فيهم أن يحضروا أصدقاءهم، وأقسى ناقدي الفن وخبرائه لمشاهدته، وجلس ينتظر حضورهم في حُلّة احتفالية فخمة زاهية، تلمع خطوطها الذهبية الموشاة على الكتان قرمزي اللون.

- «هذا هو ما أبدعته أخيرًا»، قال أوريليوس بفخر.

نظر أصدقائه إلى حيث أشار ولاح ظل من عميق الأسف على وجوههم. كان تمثالًا فظيعًا، لا يحاكي أي ملمح من ملامح الإنسان التي اعتادتها العين، غير أنه قد جاء بسيماء ما تشبه الإنسان وإنما بصورة جديدة، مختلفة.

على غصن رفيع، أو بالأحرى شيء قبيح آخر لا يشبه الغصن تمامًا، رقدت كتل ملتوية، غريبة، قبيحة، عديمة الشكل لمجسّم انبثقت حواشيه إلى الخارج، أو تفسخ غلافها فذاب داخلها، شظايا برية تبدو وكأنها تحاول الهروب من نفسها. وبالمصادفة، في ظل إحدى النتوءات المريعة، لاحظ الجمع منحوتة رائعة لفراشة، بأجنحة شفافة ترتجف وكأنها تتوق إلى الطيران وتكتم رغبتها.

- «ما داعي نحت الفراشة في هذا الموضع يا أوريليوس؟»، سأل أحدهم على مضض.

- «لا أدري»، قال أوريليوس.

كان لا بُدَّ للحقيقة أن تُذكر، وقد أخبرها أحد أصدقاء أوريليوس، ذلك الذي يحبه أكثر من الجميع: «هذا شيء قبيح يا صديقي المسكين. يجب علينا أن ندمّره. أعطني مطرقتك». وبضربتين حطّم الصديق فوضى أوريليوس المريعة، متجاهلًا فقط منحوتة الفراشة، فقد تركها على حالها.

لم يستطع أورويليوس منذ ذلك الحين إبداع أي شيء، وتغيّرت نظرته للرخام والبرونز وحتى لسابق إبداعاته الفنية الخالدة. بهدف إيقاظ شعلة الإبداع القديمة التي انطفأت بداخله، واستعادة روحه الميتة، صحبه صديقه لمشاهدة إبداعات الآخرين، ولكنه لم يبد نحوها سوى لا مبالاة أصيلة ولم تهتز شفتاه حتى بابتسامة وحيدة، حتى عندما حاول الكثيرون محادثته عن الجمال والفن، كان يردّ بإنهاك: «ولكن كل هذا ـ محض كذب».

في النهار، حين تمتد أشعة الشمس الحارقة، كان أوريليوس يذهب إلى حديقته الغنية بالزهور والأشجار المورقة، وينتقي مجلسًا عاريًا من ظلال قد تحجب عنه الشمس، ثم يبدأ في الاستلقاء معرَّضا رأسه العارية وعيناه الملولتان إلى بريق الشمس وحرارتها الشديدة. ترفرف الفراشات الحمراء والبيضاء من حوله. وتتدفق المياه الرائقة إلى حوض رخامي من فم تمثال لإله يوناني ثمل يضحك ساخرًا. على الرغم من جمال المنظر، جلس أوريليوس بلا حراك، مثل ظل شاحب لذلك الآخر الذي كان يجلس ساكنًا ذات يوم، في أرض بعيدة على أبواب الصحراء الصخرية تحت أشعة الشمس الحارقة.

وحين استدعي لعازر أخيرًا إلى روما بدعوة من أغسطس العظيم. ألبسوه حُلة عرس بديعة أخرى، وكأنه قد قُدّر له أن يكون عريسًا لعروس مجهولة حتى يوم مماته. بدا لعازر بمظهره الكابوسي وحلته الفاخرة، كتابوت قديم متعفن، متآكل جسده بالفعل، وقد جددوه وعاد مُذهبًا من جديد، مزخرف بشرّابات وزينات لطيفة. قطع لعازر الموكب الحافل محمولًا على أكتاف حراس بأزياء برّاقة لامعة، وبدى موكبه كما لو كان حقًا موكب زفاف، نفخ حرّاس الموكب عاليًا في أبواقهم طالبين

من الجمع تمهيد الطريق لمبعوثي الإمبراطور. لكن طريق موكب لعازر كان على طوله مهجورًا؛ فقد وصلت سمعة لعنة القائم من الموت من موطن لعازر وحتى روما، لذلك فقد تفرّق الناس وتبعثروا فور سماعهم لخبر مرور لعازر. صدح صوت الأبواق النحاسية وحيدًا، لم يجبها آنذاك سوى صداها الذي تردد عبر الصحراء.

أكمل لعازر طريقه نحو روما عبر البحر، وقد كانت سفينته أكثر السفن زخرفة وأشدها تعاسة من بين كل ما قد شق طريقه عبر عباب الأمواج الزرقاء للبحر الأبيض المتوسط. كان على متنها العديد من الركاب، ولكن الخرس والهدوء كانا يغلّفان المكان، تمامًا كمقبرة، كما لو كانت المياه اليائسة من تحتهم تبكي وتنوح بينما تمرّ جارية يشتتها قوس السفينة. جلس لعازر هناك وحيدًا ومعرضًا للشمس رأسه المكشوف، بينما يستمع بصمت إلى صوت الأمواج المتخبّطة من حوله، وجلس البحارة ومبعوثو الإمبراطور بهدوء على مسافة بعيدة كحشد من ظلال حزينة. كانت تلك السفينة لتغرق لا محالة إذا هز السماء رعدٌ ومزقت الرياح شراعيها ذلك أن كل من كانوا على متن السفينة في ذلك الوقت قد عدموا كل قوة أو إرادة للقتال من أجل حياتهم. مستعينين بآخر نفحة من قواهم، اقترب البعض من قوس السفينة ناظرين بأمل نحو الهاوية الشفافة من تحتهم، آملين في التمتع برؤية حورية بكتف مرمري وردي اللون، أو قنطور([8]) يسبح ضاربًا بجسده صفحة الماء، ولكن المساحة المائية الشاسعة امتدت أمامهم صامتة مهجورة.

نزل لعازر بروح لا مبالية إلى شوارع المدينة الخالدة. لم تترك المدينة في نفسه أثرًا عظيمًا حتى بجميع ثرواتها، وكل عظمة مبانيها، وكل البريق والجمال والموسيقى والحياة الراقية، إلا كالأثر الذي يتركه في نفسه دوي الرياح في الصحراء، أو لمعان رمال الصحراء تحت لهيب الشمس. مرّت العربات، تحركت حشود من الرجال والأقوياء من بناة المدينة الخالدة وسكانها؛ عُزفت الأغاني، ضحكت النساء بضحكات رقيقة تلألأت كرقراق المياه العذبة الذي انصبّ من النافورات، تفلسف السكارى، واستمع لهذرهم المعافون من أثر الخمر وابتسموا، وضربت حوافر وحوافر وتسابقت على طول أحجار الطريق. في ضوضاء وفوضى مرحة أحاطته من كل جانب، ملتحفًا كتلة من الصمت البارد، تحرك رجل سمينٌ وثقيل يبذر في طريقه الغضب والحزن والغموض، مستنزفًا كل كآبته. «من ذلك الذي يجرؤ على الشعور بالحزن في روما؟». عبس المواطنون بسخط، وبعد يومين بالفعل عرف كل سكان روما عن معجزة القائم من الموت وصاروا يتجنبونه خائفين.

ولكن كان هناك بالطبع أناسًا شجعان ممن رغبوا في اختبار قوتهم وقدراتهم، ولبى لعازر دعواتهم جميعًا وأطاعهم لما طلبوه. أرجأ الإمبراطور أغسطس استقبال لعازر سبعة أيام لانشغاله ببعض أمور البلاد، وظل لعازر طوال تلك الأيام يجيب دعوات الناس. زار لعازر رجلًا سكّيرا، حيّاه الرجل من بين شفتيه الحمراوتين:

- «هاك بعض الخمر يا لعازر، لكم سيضحك الإمبراطور إن رآك شاربًا للخمر».

ضحكت النساء في الحانة، وقذفوا لعازر ببتلات ورود سقطت على يديه الزرقاء، وبعدها نظر الرجل السكران نحو عيون لعازر ـ وكانت تلك النظرة إيذانا بانتهاء السعادة من حياته. على أنه ظل لبقية أيامه سكرانًا، لا بفعل غياب عقله في أثر الخمر، وإنما بفعل الكوابيس التي ظلل حضورها المستمر لياليه وأصبحت هي الإثارة الوحيدة في حياته وصار الموت أهون حتى من أخفّها زيارة.

زار لعازر فيما بعد شابًا وفتاة كانا واقعين في غمار الحب، احتضن الشاب فتاته بعزم وفخر، وقال بعاطفة رقيقة: «انظر إلينا يا لعازر، وتمتع معنا بسعادة الهوى، هل هناك ما هو أقوى من الحب؟».

نظر إليهم لعازر، وبعدها ظل المحبان على حالهما الولهان، إنما طال هواهما من نظرة لعازر الكدر والحزن، واختلطت دموعهما بالقبلات.

كان آخر من زاره لعازر، حكيم بدا فخورًا بعلمه، قال الحكيم:

- «أنا أعلم بالفعل كل ما يمكنك إخباري به عن الموت يا لعازر، فماذا تملك زيادة تستطيع به إخافتي؟».

بعد وقت قصير، استطاع الحكيم أن يدرك الفرق بين أن تعرف عن كل ما هو مريع في الدنيا وأن تَتَعرّف إليه، وأن رؤية الإنسان لفكرة الموت تختلف كليًا عن رؤيته للموت ذاته رأي العين. عرف الحكيم أن الحكمة والحماقة متساويتان أمام المجهول، واختفت كل الحدود بين المعرفة والجهل، بين الحقيقة والكذب، بين الأعلى والأسفل، وظلّت أفكاره الحائرة معلّقة في الفراغ، ثم أمسك رأسه بعدها وصرخ: «لا يمكنني التفكير، لا يمكنني التفكير».

وهكذا، صار كل ما يعطي معنى للحياة ويغلفها بالفرحة قد انتهى بفعل نظرة لا مبالاة وحيدة يُطلقها القائم من الموت. بدأ القوم يتبادلون حقيقة أن الأمر سيكون جدّ خطير لو سُمح لـ لعازر بزيارة الإمبراطور، وقالوا أنه ربما يكون قتله ودفنه بالسر فكرة جيدة، يمكنهم بعدها أن يتظاهروا أنه قد فَرَّ إلى حيث لا يعلم أحد. شُحذت السيوف، وحتى الرجال المتفانية نفوسهم والذين حملوا في ذواتهم طباع خيّرة كانوا مستعدين تمامًا للتطوع باغتيال لعازر. فقط عندما أمر أغسطس برؤية لعازر في اليوم التالي، أحبط ذلك جميع خططهم الشريرة.

فكر القوم؛ إن لم يمكنهم التخلّص من شر لعازر؛ فلربما يستطيعون على الأقل التخفيف من حدّة ذلك الأثر الرهيب، والانطباع المريع الذي يصدر عن وجهه. وبهذا الهدف طلبوا استدعاء جميع الرسّامين، الحلاقين، والفنانين، وأمضوا الليلة كاملة في العمل على رأس لعازر ووجهه. شذبوا لحيته، وصففوها ومنحوها مظهرًا جذّابا، وصبّوا لونًا أبيض لإخفاء زرقة الموت التي انطبعت على يديه ومسحوا ببعض اللون الوردي على خدّيه الغائرين. كانت تجاعيد البؤس التي طفحت على كامل وجهه مثيرة للاشمئزاز، لذا فقد دهنوا كامل وجهه بالطلاء، وأخفوا التجاعيد القديمة تمامًا وبفرشاة رفيعة رسموا تجاعيد خفيفة طبيعية من تلك التي تصنعها الابتسامات.

لم يقاوم لعازر أي مما فعلوه به، وسرعان ما تحول إلى رجل عجوز وسيم سمين، كالجَدّ الهادئ واللطيف لأحفاد كثيرين. جدّ ذي ابتسامة لم تفارق شفتيه، استعان بها سنوات في رواية حكايات كثيرة مضحكة، جدّ ذي طبع حنون هادئ ما زالت آثاره باقية تلمع في زاوية عينيه، هكذا لاح لعازر بعد التعديل. لكنهم لم يجرؤوا على خلع ثياب الزفاف عنه، ولم يتمكنوا من تغيير مظهر عينيه، ألواح زجاجية مظلمة ورهيبة، نظر المجهول العصي على التفسير منها لكل من حدّق في عيون لعازر من قبل.

لم يتأثر لعازر على الإطلاق بالفخامة التي بدا عليها القصر الإمبراطوري. وكان يبدو على ملامحه اللا مبالية كما لو أنه لم يرَ أي فرق بين منزله المتداعي الخَرِب الذي ابتلعته الصحراء، وبين هذا القصر البديع المبني من الحجر. سار إليه لعازَر لا مباليًا، لا ينظر إلى القصر ولا يتجاهله. تبدّى في عيونه ذلك الرخام الصلب تحت قدميه كرمال الصحراء بلا فارق، وحتى نظرته نحو زمرة الرجال المتأنقين في القصر، كانت كتمام نظرته نحو الفراغ. لم يجرؤ الرجال على النظر إلى وجهه بينما مرّ بينهم، خوفًا من التعرض لتأثير عينيه الرهيب؛ لكن عندما استنبطوا، عبر أصوات خطاه الثقيلة، أنه قد تجاوزهم بالفعل، رفعوا رؤوسهم وبفضول شديد دققوا النظر نحو الرجل العجوز السمين طويل القامة بانحناءة بسيطة في ظهره، الرجل الذي كان يشق طريقه ببطء إلى قلب قصر الإمبراطور.

لم يكن الناس ليخافوا أكثر لو مَرَّ الموت نفسه بجوارهم، ذلك أن الموت كان معروفًا فقط لهؤلاء الذين ماتوا بالفعل، أما الأحياء فلا يعرفون سوى الحياة، ولم يكن هناك أي تماس بين الجانبين. أما هذا الرجل غير الطبيعي فقد كان على معرفة بالموت وثيقة، وكانت معرفته الملعونة هذه غامضة وباعثة على الخوف. «سوف يقتل عظيمنا أغسطس»، هكذا فكّر الناس برعب وشيعوا لعازر بلعناتهم، لعازر الذي كان ما يزال يسير ببطء، وبلا اكتراث أقرب وأقرب، أعمق وأعمق داخل القصر.

بحلول ميعاد قدوم لعازر إلى القصر، كان القيصر قد عرف من يكون لعازر، وأعد نفسه بالفعل لهذا اللقاء، ولأنه كان رجلًا شجاعًا، يثق في قدراته، فقد رفض مساعدة أو تدخّل كائنا من كان في اللقاء الذي عدّه كمبارزة بينه كبشري وبين ذلك القائم من الموت. واجه القيصر لعازر وجهًا لوجه، فردًا لفرد. «لا ترفع عينيك إليَّ يا لعازر»، أمر القيصر زائره. «لقد سمعت أن رأسك كرأس ميدوسا (9)، تحوّل كل من تقع عيونك عليه إلى حجر، وأنا أرغب حقًا في التدقيق في أمرك والحديث إليك قليلا قبل أن أتحول إلى حجر». قال القيصر ساخرًا بنبرة وقورة قليلا لا تخلو من بعض الخوف. اقترب القيصر من لعازر وطفق يفحص وجهه ورداءه الاحتفالي الغريب، وعلى الرغم من فحصه الدقيق، انخدع القيصر في المظهر الخادع لوجه لعازر الذي منحه إياه الناس معدّلين من هيئته.

«حسنًا، إنك لا تبدو مخيفًا إلى ذلك الحد، أيها العجوز الفاضل. وإنما ربما يخافك الناس لكونك تبدو بمظهر طيب على الرغم من نقمتك المريعة. والآن لنتحدّث».

جلس أغسطس متفحِّصا لعازر بنظراته كما بكلماته، وبدأ الحوار بسؤاله:

- «لماذا لم تَلق علينا التحية حين دخلت؟».

- «لم أكن أعلم أن ذلك ضروري». أجاب لعازر بغير اكتراث.

- «هل تعتنق الديانة المسيحية؟».

- «لا».

هزّ أغسطس ([10]) رأسه مستحسنا إجابة لعازر.

- «من أنت؟».

- «كنت ميتًا». أجاب لعازر ببعض من جهد.

- «علمت عن هذا الأمر. وإنما أقصد من تكون الآن؟».

تردد لعازر في الإجابة، ثم عاد وكرر بصوت خافت غير مبال: «كنت ميتًا».

- «استمع إليَّ أيها الرجل المجهول». قال الإمبراطور بوضوح وصرامة، مُلقيًا على سمع لعازر خطبة كان قد أعدها من قبل وتأمل كثيرًا في فحواها: «إن مملكتي، هي مملكة الأحياء، وشعبي، شعب من الأحياء لا الميتين. وأنت غير مرغوب بك هنا، لا أريد أن أعرف من أنت، ولا أبغي معرفة ماذا قد رأيت هناك في عالم الموتى ـ ولكن إن كنت تكذب، فأنا أكره كذبك، وإن كنت مخبرًا بالحقيقة، فأنا أبغض حقيقتك تلك. إنني أشعر بالحياة تنبض وترتعش في صدري؛ أشعر بقوتي في يدي، وأفكاري العظيمة كما الصقور تدور وتدور في الفضاء الشاسع. يعيش أناس فرحين كادحين، هنا تحت إمرتي وتحت حمايتي، تحت ظلال القوانين التي شرعتها. هل سمعت عن بهجة الحياة؟ هل سمعت صرخة الحرب التي يطلقها قومي في وجه المستقبل داعينه إلى منازلتهم؟».

مد أغسطس ذراعيه كما لو كان يبتهل وهتف بنبرة انتصار: «يا أيتها الحياة العظيمة، المقدسة، فلتتباركي».

ولكن لعازر ظل صامتًا، وأكمل الإمبراطور خطبته بصرامة أشدّ:

- «غير مرغوب بك في بلادي يا لعازر. وما أنت إلا مجرد فُتات يرثى لها، قد عافها الموت فأعرض عنها. تزرع الغضب في الناس وتنكر عليهم الحياة؛ مثل يرقة، تلتهم نواة البهجة وتتغوّطها حزنًا ويأسًا. أما حقيقتك تلك فهي أشبه بسيف صدئ في يد قاتل، ولكونك قاتل، فسآمر بقتلك قصاصًا. ولكن قبل أن أفعل هذا أريد أن أنظر إلى عينيك. ربما هي تؤثر فقط في الجبناء وتزرع الخوف فيهم، بينما على الشجعان يأتي تأثيرها مختلفًا، كأن توقظ فيهم تعطشًا للحرب وللنصر، وفي مثل تلك الحالة ربما تكون مستحقًا للمكافأة وليس الإعدام.. انظر إليَّ يا لعازر».

في البداية، بدا الأمر لأغسطس العظيم، كما لو كانت نظرة لعازر نظرة صديق، ناعمة ولطيفة. ومنّته النظرة بالسلام لا الفزع، وبدا المجهول كحبيب رقيق، كأخت حنون، وأم رؤوم. ولكن العناق أصبح فجأة خانقًا حتى كادت تنقطع أنفاسه، وشعر بشيء قاسٍ يكوي عظامه، ولمست عظام باردة قلبه وغطست بين ضلوعه.

- «إنني أتألم». قال أغسطس العظيم بينما يتحول وجهه للشحوب، «ولكن انظر إليَّ يا لعازر، انظر».

شعر أغسطس كما لو أن بعض البوابات الثقيلة، المقفلة إلى الأبد، قد بدأت تتفكك وتتباعد ببطء، وفي الفجوة المتنامية بين ضلفاتها، تسلسل الرعب الرهيب من المجهول. ظهر الفراغ اللا نهائي بصحبة الكرب كظلّين، وتعاونوا فحجبوا عن الشمس ضيها، وسحبوا الأرض من تحت أقدام البشر وأسقطوا سماءها فوق رؤوسهم، وحينها.. بدأ القلب الذي تحجّر أخيرًا في الشعور بالألم.

- «انظر، انظر نحوي يا لعازر»، أمر أغسطس بنبرة مرتعشة.

توقف الوقت، واقتربت بداية كل شيء من نهايته. عرش أغسطس، الذي ظهر له كأنه قد شُيِّدَ الآن فقط، قد انهار بالفعل، وحَلَّ الفراغ بعدها بالفعل محل العرش وأغسطس. انهارت روما أمام عيونه بصمت ونشأت مدينة جديدة في مكانها ما لبث الفراغ أن امتصها. كأطياف عملاقة، سقطت المدن والحكومات والدول واختفت في الفراغ، هكذا، دون ميعاد، ابتلعهم فرس المجهول الأسود.

- «توقّف»، أمر الامبراطور، وقد تغيّر صوته بالفعل، وسقطت يداه على جانبيه بوهن، ولمعت عيونه وتلاشت نظرتها في معركته الخاسرة مع الكرب الذي قد حَلَّ عليه أو اقترب.

- «لقد قتلتني يا لعازر»، قال الإمبراطور في صوت ضعيف خافت.

وقد أنقذته كلماته تلك التي لفّها اليأس. تذكر شعبه، الذي اختير ليكون له درعًا وحماية، ثم اخترق قلبه الميّت ألم حاد جعله راغبًا في الخلاص. أنا... «سائر بقدر محتوم نحو الهلاك»، فكر بحزن شديد، «ظلال تسعى في طريق الكرب»، فكر بفزع، «آنية هشّة تملك دمًا حيًا يتحرّك في الضلوع، وقلب يعرف شديد الحزن وغمار الفرح.

- «لا، أنت لم تقتلني يا لعازر»، قال بصوت صارم. «لكنني سأقتلك. اذهب!».

في ذلك المساء التهم أغسطس العظيم طعامه وشرابه ببهجة غير عادية. ولكن كانت هناك لحظات عندما جمدت ذراعه التي رفعها في الهواء وحَلَّ لمعان باهت مكان لمعة عيونه، وفي بعض الأحيان، كان يحسّ بشعور طفيف بالهلع ينساب مارًا من بين قدميه وكأنه موجة جليدية. مهزومًا لا قتيلا، أصبح أغسطس يشبه ظلًا أسودًا يرقد على سريره ليلًا ينتظر مصيره المحتوم، وإن ظلّت الأيام تتوالى عليه بأنصبة متباينة من هموم الحياة وبهجتها.

في اليوم التالي، وبناءً على أوامر الإمبراطور، أحرقوا عيون لعازر بالحديد الساخن وأعادوه إلى بلاده. لم يجرؤ أغسطس العظيم في النهاية على قتله.

عاد لعازر إلى الصحراء، وقد استقبلته الصحراء مرحبة بصفير عوت به الريح وحرارة بثّتها الشمس المشرقة. ومرة أخرى، انتقى صخرة وجلس عليها، رفع لحيته الوحشية المنكوبة نحو الأعلى، وبدلاً من عينيه، ظهر ثقبان أسودان يحاولان

النظر إلى الشمس. من بعيد، ظهرت المدينة المقدسة تضوي وتلهث فيها حركة سُكانها، لكن هنا كان الجو صامتا والمكان مهجورًا، لم يعد أحد يقترب من المكان الذي حَلَّ عليه القائم من الموت وفيه عاش، وعندما عاد لعازر إليه كان الجيران قد تركوا منازلهم منذ فترة طويلة. أما عن قدراته ومعرفته الملعونة، فقد دفعها الحديد الساخن الذي كوى بصره حتى أعماق جمجمته، كامنة هناك كالكمين، وقد أنبتت فجأة داخل وعيه إنسانًا بألف عين غير مرئية، وحينها لم يعد أحد يجرؤ حتى على إلقاء نظرة خاطفة لوجه لعازر.

وفي المساء، عندما غاب قرص الشمس الأحمر الباهي في الأفق، كان لعازر يلاحقها كفيفًا. عاود لعازر الاصطدام بالصخور، وعاود السقوط، سمينًا وضعيفًا، ثم ما يلبث أن ينهض ببطء ويستمر في المسير.

خرج لعازر في أحد الأيام ولم يعد. وهكذا، كانت فيما يبدو، نهاية الفرصة الثانية للعازر في الحياة، لعازر الذي قام بمعجزة بعد أن ظل لثلاثة أيام تحت سطوة الموت الغامضة...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فيودر سولاجوب

1927-1877

إنسان صغير([11])

فيودر سالاجوب

الفصل الأول

كان ياكوف ألكسيفييتش سارانين بالكاد رجلًا متوسط القامة والحجم؛ وكانت زوجته أجلايا نيكيفورونوفا، والتي تعود أصولها لبلدة ترانديسفولك، امرأة طويلة في العشرين من عمرها، كانت أجلايا امرأة سمينة جدا، حتى أنها الآن وبعد مرور عام بالفعل على زواجهما تبدو بجوار زوجها صغير الحجم كالعملاقة.

«ماذا سيحدث إن صارت أضخم فأضخم؟»، هكذا فكّر ياكوف ألكسفييتش، على الرغم من كونه قد تزوجها عن حب ـ حبًا فيها وفي مهرها([12]).

كان الفرق في الحجم بين الزوج وزوجته، كثيرًا ما يتسبب في استقبالهما العديد من الملاحظات الساخرة من معارفهما. سممت تلك المبادرات والمداعبات التافهة حياة سارانين وسلامه النفسي، وتسببت لآجلايا نيكيفورنوفا في شديد الحرج.

ذات يوم، عاد سارانين إلى منزله هائجًا من غضب مكتوم، بعد أن قضى الليلة بصحبة زملائه ولم يستطع حتى تحمل أقل قدر من مزاحهم بنفس الشأن.

حين رقد في سريره بجوار آجلايا، بدأ سارانين يتذمر وبدأت مشاحناتهم المعتادة، في حين رَدّت آجلايا عليه بصوت نعسان وليس لديها رغبة في الشجار: «وماذا عليَّ أنا أن أفعل؟ هذا ليس خطئي».

كانت آجلايا في مزاج هادئ وغاية في المسالمة.

هدر سارانين: «كُفّي عن إغراق نفسك في اللحوم، وحشو معدتك بالمعجنات وكل ما يُصنع من الدقيق، لم تتوقفي منذ بداية اليوم عن أكل الحلويات».

- «وإن كنت أشعر بشهية جيدة نحو الطعام، لا يمكنني أن آكل؟» ردّت آجلايا «كنت أتمتع بشهية أفضل في العموم عندما كنت عزباء».

- «هذا ما أظنه. نعم، لقد أكلتِ ثورًا بأكمله ذات يوم، أليس كذلك؟».

- «إنه أمر مستحيل أن يتمكن الإنسان من أكل ثور كامل في يوم واحد»، ردّت آجلايا بهدوء.

راحت آجلايا بعدها في النوم، أما سارانين فظل ساهدًا أرقًا في تلك الليلة الخريفية الغريبة.

ظل يتقلّب على سريره لفترة طويلة، ذات اليمين وذات الشمال.

عندما يشعر الروسي بالأرق، فهو عادة ما يبدأ في التفكير، وكذلك فعل سارانين، الذي وهب نفسه الآن لهذه العادة، شاعرًا بأهميتها الشديدة فقط في هذه الليلة؛ فقد كان موظفًا مهما، لم يكن لديه أسباب في العادة لإضاعة وقته في التفكير في المواضيع والأمور.

«لا بُدَّ أنَّ هناك طريقة ما»، تأمل سارانين في حاله مفكرًا؛ «هناك آلاف من الاكتشافات العلمية التي يتعرف إليها العالم كل يوم. في الولايات المتحدة مثلًا، يصنعون أنوفًا من ألف شكل، ويغيرون حتى جلد الوجه. يقومون بعمليات جراحية متعددة، يثقبون الجمجمة ويفتحون القلوب والأوعية ثم يعودون لخياطتها تمامًا كما كانت. ألا يمكن أن أجد لديهم طريقة لجعلي أنمو؟ أو حتى لتقليص حجم آجلايا؟ وصفة أو طريقة سرية مثلًا؟ ولكن كيف أجدها؟ كيف؟ إنني لن أجدها بالطبع بينما أنا راقد هكذا في سريري. هل تتفجّر مياه الينابيع المدفونة تحت الصخور من تلقاء نفسها؟ يجب أن أبحث عن هذا العلاج السرّي. ربما من اخترعه يجوب الشوارع الآن بالفعل باحثًا عن مشتري. نعم، بالطبع هو يفعل، فليس من المعقول أنْ يطلب مشتريًا عبر اعلانات الصحف مثلًا. هو بالأحرى يتجول الآن في الشوارع، ويبيع للناس اختراعاته التي يخفيها تحت معطفه ـ هذا احتمال معقول جدًا. هو لا بُدَّ يعرض اختراعاته على الناس في الخفاء، وعلى من يحتاج هذا العلاج السرّي ألا يبقى هكذا راقدًا يتقلّب في سريره دون نهاية».

بعد أن توصّل لهذه النتيجة، نهض سارانين وارتدى ملابسه سريعًا، متمتمًا لنفسه: «الساعة الآن الثانية عشرة بعد منتصف الليل».

لم يكن سارانين يخشي استيقاظ زوجته، فقد كان نومها عميقًا بطبيعته.

«تنام كريفي أخرق لا يحمل للدنيا همّ». قال سارانين في نفسه.

انتهى سارانين من ارتداء ملابسه، وخرج إلى الشارع. لم يكن يشعر بالنعاس مطلقًا. كانت روحه خفيفة، وكان مزاجه معتدلًا كمغامر يتوق لرحلة شيقة أو تجربة ممتعة على وشك خوض غِمارها.

كانت تلك المرة الأولى التي يشعر فيها هذا الموظف المسؤول الملتزم بالقانون ـ الذي ظلّت حياته هادئة ملولة بلا لون طوال ثلث قرن ـ فجأة تحرك بروح صياد مغامر بلا خطط مسبقة في الصحراء، صيّاد بطل مثل كوبر ([13]) أو مين ريد ([14]).

ولكن بعد أن مضى بخطوات معدودة في طريقه ـ الذي كان مكتبه يقع في نهايته، وقف فجأة وفكّر. أين عليه أن يذهب؟ كان الجو هادئًا تمامًا، وناعمًا بسلام أريب، فبدا كما لو كان الشارع هو مجرد رواق طويل في مبنى ضخم، غير ذي أهمية، بعيد عن كل خطر، مُغلق في وجه كل ما يقع خارجه أو ينبئ بأزمة. كان حراس المنازل يجلسون متراصين على كل بوابة، وظهر شرطي عند مفترق الطرق البعيد. لمع ضوء المصابيح في الشارع، وأشرقت الأرصفة وحصى الطريق بفعل دفقات رطبة غمرتهم من المطر الذي توقّف لتوّه.

نظر سارانين حوله، وبتردد عظيم، التفت إلى اليمين ومشى نحو الأمام مباشرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني

عند ناصية التقى على طرفيها شارعان، وفي ضوء المصباح القوي، شاهد سارانين رجلًا يسير تجاهه، فقفز قلبه بنذير فرح.

كان الرجل ذا هيئة غريبة؛ رداء طويل بألوان زاهية، يلتف حوله حزام عريض، طاقية ضخمة مبقّعة بطرف مدبب، لحية طويلة رفيعة، ذات خصلة بلون الزعفران، أسنان بيضاء تلمع، وعيون داكنة ثاقبة وقد اختبأت قدماه داخل خُفيّن.

«أنت أرميني([15])؟». لاحظ سارانين فورًا.

اقترب منه الرجل الأرميني وقال:

- «عمّا تبحث في مثل هذه الساعة من الليل يا عزيزي؟ ألا تذهب للنوم أفضل، ألا تقوم بزيارة للسيدات الجميلات ربما؟ إذا كنت تريد يمكنني اصطحابك لحيث تجدهن».

- «لا. لدي سيدة جميلة بالفعل وهي تكفيني وزيادة». قال سارانين.

أطلع سارانين الرجل الأرميني على مشكلته وجلّ مطلبه.

أصدر الرجل صوتًا مستاءً وقال:

- «نعم، زوجة ضخمة وزوج ضئيل الحجم، حتى تُقبّلها، ستحتاج لسلم، أوف، هذا أمر مزعج».

- «ماذا يمكنني أن أفعل حيال ذلك إذن؟».

- «تعال معي، سأساعدك أيها الرجل الطيب».

سار الاثنان لفترة طويلة في الشارع الهادئ الأشبه برواق طويل، الأرميني يسير في المقدمة، يتبعه سارانين.

في كل مسافة بين مصباح ومصباح، كان مظهر الرجل الأرميني يتبدّل؛ ذلك أنه كان فيما يبدو ينمو في الظلام، وكلّما ابتعد عن ضوء المصباح تضخّم أكثر فأكثر، وكان طرف قبعته يبدو كما لو أنه يتطاول فوق المنازل والسحاب، ذلك حتى يمر مجددًا تحت الضوء فيصير أصغر ويستعيد هيئته السابقة ويبدو كبائع متجول بسيط وعادي، كان شديد الغرابة، غير أن سارانين نفسه لم ير في هذه الظاهرة أي غرابة، كان في مزاج رائق واثقًا من قدرات الرجل، حتى أن أعاجيب ليالي الألف ليلة ذاتها كانت لتبدو عادية في نظره كأحداث يوم ممل من أيام عمله.

عند باب أحد المنازل، مبنى عادي أصفر اللون مكون من خمسة طوابق، توقفوا. ساعد ضوء المصباح الموجود عند الباب في إيضاح ما كتب على لوحته، لاحظ سارانين:

- «رقم ٤١»

دخل الأرميني وسارانين إلى فناء المنزل، ثم صعدوا الدرج في الناحية الخلفية. كانت السلالم شبه معتمة، ولكن ضوء المصباح الخافت قد سقط على الباب الذي توقف الأرميني أمامه، واستطاع سارانين مجددًا تمييز الرقم:

- «رقم ٤٣»

أدخل الأرميني يده إلى جيبه، وأخرج منه جرسًا صغيرًا، من النوع الذي يتم استخدامه في القصور لاستدعاء الخدم، ثم هزّه ليصدر الجرس الصغير رنينًا جليًا ومجلجلًا.

انفتح الباب على الفور. وقف خلف الباب فتى بأقدام حافية، جميل الهيئة، ذو بشرة داكنة، وشفتان حمراوان. كانت أسنانه البيضاء تتلألأ، ولم تكن ابتسامته سعيدة أو ساخرة، بل بدا كأنه معتاد على الابتسام طوال الوقت. برقت عيون الفتى الجميل ببريق أخضر، ولاح جسده رشيقًا كقطة أو غامضًا كشبح في كابوس لطيف. نظر الفتى إلى سارانين وابتسم. شعر سارانين بعدم الارتياح.

دخل الضيفان. أغلق الفتى الباب، وانحنى للأمام بخفة وبراعة، وقادهم إلى الممر، حاملاً مصباحًا في يده. فتح الفتى الباب بذات الحركات الرشيقة الغامضة التي ميّزها فيه سارانين.

كانت الغرفة ضيقة، مظلمة، وغامضة، وقد رُصت خزائن تحوي زجاجات وقوارير على طول جدرانها، وانتشرت في المكان رائحة مزعجة وغريبة.

أنار الأرميني المصباح، وفتح إحدى الخزائن، وعبث في محتوياتها قليلًا ثم أخرج قارورة تحوي سائلا مخضرًّا.

- «قطرات ذات مفعول عظيم». قال الأرميني: «لو وضعت قطرة في كوب ماء وشربته، ستذهب في النوم بهدوء ولن تستيقظ بعدها أبدًا».

- «لا. لست في حاجة إلى هذا!». قالها سارانين بغضب، «هل ظننت أنني جئت معك من أجل هذا؟».

- «عزيزي» قالها الأرميني متملقًا، «بعدها يمكنك أن تتزوج مرة أخرى؛ امرأة في مثل حجمك».

- «لا أريد هذا.» صرخ فيه سارانين.

- «حسنًا، لا تصرخ في.»، استوقفه الأرميني، «لماذا أنت غاضب يا عزيزي؟ إنك تفسد أعصابك ها هنا هباء. إذا كنت لا تُريد هذا لا تأخذه، سأعطيك أشياء أخرى، ولكنها أشياء غالية، آه غالية جدًا».

قرفص الأرميني منحنيًا، الأمر الذي منح هيئته الطويلة مظهرًا مضحكًا، وحين قام كان قد أخرج زجاجة مربعة الشكل، يلمع فيها سائل شفاف. قال الأرميني بهدوء وبنظرة غامضة:

- «تشرب قطرة فتخسر باوندًا، تشرب أربعين قطرة، تخسر أربعين باوندًا، كل قطرة تخسر مقابلها باوندًا، وكل قطرة تدفع مقابلها روبلًا. عُد القطرات التي تحتاج، وامنحني روبلات بعددها».

كاد سارانين أن يطير من الفرحة.

- «كم قطرة أحتاج يا تُرى؟» فكّر سارانين، «لا بُدَّ أنها تبلغ الآن من الوزن ما يوازي المائتي باوند، إذا خسرت من وزنها مائة وعشرين، ستصبح امرأة ضئيلة الحجم لا شك. هذا معقول جدًا. اعطني إذن مائة وعشرون قطرة».

هزّ الأرميني رأسه وقال:

- «ما تريده كثير جدًا. يا للأسف».

غضب سارانين وطار صوابه

- «هذا شأني أنا».

نظر إليه الأرميني بنظرة فاحصة وقال:

- «عد النقود إذن».

أخرج سارانين محفظته وبدأ يعد المال للرجل، «كل ما ربحته اليوم من القمار، وعليَّ أن أضيف بعضًا من مالي أيضا». قال سارانين في نفسه.

في الوقت ذاته، كان الأرميني قد بدأ يعدّ القطرات باستخدام قطّارة. غير أن بعض الشك المفاجئ قد أصاب عقل سارانين؛ مائتا روبل مبلغ عظيم، وإذا افترضنا أنه يخدعني ماذا يكون العمل؟

- «القطرات تعطي مفعولًا حقيقيا، أليس كذلك؟» قال سارانين مترددًا.

- «نحن تجار لا محتالين». ردّ صاحب المنزل. «سأريك الآن بعضًا من مفعول القطرات. جاسبار نادى الأرميني بصوت عال.

دخل الفتى حافي القدمين ذاته، كان يرتدي معطفًا أحمر وبنطالا أزرق قصيرًا. وكانت بشرته البنية تظهر من تحته، كان رشيقًا، ويتحرك في سلاسة وخفّة. أشار الأرميني بيده، فألقى جاسبار بمعطفه جانبًا، ووقف فوق المائدة يستعرض رشاقته.

- «سوف تعطي القطرات مفعولًا فوريا بعد تناولها مباشرة. امزجها مع الماء أو الخمر برقّة حتى تذوب تمامًا فلا تلحظ لها أثرًا. إن مزجتها بعنف وسرعة ستعمل بغير كفاءة وتفسد».

أخذ الأرميني كوبًا صغيرًا وصب فيه بعض السائل وأعطاها إلى جاسبار. قبل جاسبار المنحة كطفل مدلل يشتاق للحلوى، شرب بعدها السائل حتى ثمالة الكوب، وألقى رأسه للخلف ولعق آخر قطرات في الكوب مستخدمًا لسانه الطويل المدبب الأشبه بأنياب الثعبان، وعلى الفور، وأمام ناظري سارانين، بدأ جاسبار يتضاءل في الحجم. كان واقفًا منتصبًا، ينظر إلى سارانين ويضحك، وبعدها تغيّر حجمه

فصار كما دمية البالون كتلك التي تباع في المعارض الريفية وتنكمش بعدما يفرغون منها الهواء.

حمله الأرميني من مرفقه ووضعه على الطاولة. كان الفتى بحجم شمعة، وبدأ يرقص ويتمايل.

- «ماذا سيحدث له الآن؟» سأل سارانين.

- «لا تقلق يا عزيزي، سنجعله ينمو مرة أخرى». أجاب الأرميني.

بعدها فتح خزانة أخرى، ومن أعلى الرف أخرج قارورة أخرى بنفس الشكل الغريب فيها سائل أخضر، ثم في كأس صغير بحجم كشتبان، صب الأرميني القليل من السائل وأعطاه مجددًا لجاسبار.

مرة أخرى شربها جاسبار، حتى ثمالتها، تمامًا مثل المرة الأولى.

وببطء، كما تتهادى قطرات المياه واحدة فواحدة لتملأ الحوض، كان الفتى يصبح أكبر وأكبر. حتى وصل حجمه، أخيرًا، إلى أبعاده السابقة.

قال الأرميني:

- «يمكنك شربه مع النبيذ، مع الماء، مع الحليب، أو مزجه بأي سائل تريد، فقط لا تشربه مع مشروب الكفاس ([16]) الروسي، أو سوف يبدأ جسدك في التقشّر بشكل سيء».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث

انقضى على الموقف السابق بضعة أيام.

كان سارانين فيهم يكاد يطير من الفرحة، ودائم الابتسام بغموض.

كان ينتظر الفرصة.

ويتحين الوقت المناسب.

اشتكت آجلايا ذات يوم من صداع

- «لدي العلاج المناسب». قال سارانين: «إنه يعمل بكفاءة متناهية».

- «لا علاج يمكنه شفاء الصداع». قالت آجلايا بتكشيرة عميقة.

- «ولكن هذا يمكنه. لقد حصلت عليه من أرميني خبير».

قالها بثقة عالمًا أن آجلايا في الأصل تؤمن تمامًا بالعلاجات والوصفات الأرمينية.

- «حسنا إذن. أعطني إياه».

أعطاها سارانين القنينة.

- «هل طعمه مزعج؟» سألت آجلايا

- «لا طعمه حقًا رائع، وله مفعول السحر. ستشعرين ببعض تعب بسيط».

نظرت إليه آجلايا ساخرة.

- «اشربي، هيا اشربي».

- «هل يمكن شربه مع نبيذ الماديرا الأبيض؟».

- «نعم هذا ممكن».

- «لتشرب معي إذن» قالت آجلايا عابسة.

سكب سارانين كأسين من نبيذ ماديرا، وفي كأس زوجته صب محتوى القنينة.

- «أشعر ببعض البرد»، قالت آجلايا برقّة، «هلا أحضرت لي وشاحي؟».

ذهب سارانين لإحضار وشاح آجلايا، وعندما عاد كان الكأسان في موقعهما ما يزالان، جلست آجلايا مبتسمة، ولف سارانين الغطاء من حولها.

- «أشعر أنني أفضل الآن.» قالت هي، «هل ما زال عليَّ أن أشرب؟».

- «اشربي. اشربي». قال سارانين محفزًا إياها.

رفع كأسه وشربا سويا.

انفجرت آجلايا في الضحك

- «ماذا هنالك؟»، سأل سارانين.

- «لقد بدّلت كأسينا، أنت من سيشعر بقليل التعب، وليس أنا».

ارتجف سارانين وصار لونه شاحبًا

- «ماذا فعلتِ؟»، صرخ سارانين في يأس.

ضحكت آجلايا من جديد، وبدت ضحكتها له في هذه اللحظة قاسية وكريهة

تذكّر في نفس اللحظة أن الأرميني لديه الترياق.

خرج سارانين مسرعًا لإيجاده

- «سيجعلني أدفع غاليا مقابله»، فكّر سارانين بحذر شديد، «ولكن بماذا يفيد المال؟ ليأخذه كله، فقط إن استطاع تخليصي من آثار هذا العقار المريعة».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع

ولكن.. يبدو أن ظلالًا من الأسى كانت على وشك فرض وجودها في حياة سارانين.

على باب المنزل حيث يعيش الأرميني، عُلّق قفل. في يأس قبض سارانين على الجرس، مدفوعًا ببعض من أمل، رن الجرس.

خلف الباب، ارتعش الجرس بصوت عالٍ واضح، بتلك الدرجة الصريحة الواثقة لرنين الأجراس في مساكن فارغة.

ركض سارانين إلى حارس المنزل. كان شاحبًا وانداحت قطرات من العرق، صغيرة جدًا، كمثل الندى على حجر بارد، على وجهه وتحديدًا فوق أنفه.

انطلق بسرعة إلى حيث يجلس حارس البوابة، وصرخ:

- «أين هو خالتيانتز؟».

كان الحارس، رجلًا كسولًا ذو لحية سوداء، وكان جالسًا يشرب الشاي من صحن. تطلع إلى سارانين بارتياب، وسأل بهدوء شديد:

- «وماذا تريد منه؟».

حدّق سارانين في الحارس ولم يدر ماذا يقول.

قال الحارس وهو ينظر إلى سارانين بشك، «إذا كان لديك أي علاقة به، فمن الأفضل لك أن تذهب بعيدًا يا سيدي، فهو أرميني كما تعرف، وكن حذرًا من الشرطة».

- «حسنا، ولكن أين هو ذلك الأرميني اللعين الآن؟»، صرخ سارانين في يأس. «ذلك الذي يعيش في المنزل رقم ٤٣؟».

- «ليس هناك أرميني هنا. حسنًا، كان هناك أرميني هنا، هذا صحيح، لن أنكر ذلك، لكن ليس بعد الآن»، أجاب الحارس.

- «أين هو إذن؟».

- «لقد رحل عن هنا».

- «إلى أين؟» صاح سارانين.

- «من يمكنه أن يعرف؟»، أجاب الحارس بهدوء. «استخرج جوازًا أجنبيا وسافر خارج البلاد».

شحبت سحنة سارانين

- «افهمني»، قال سارانين بصوت مرتعش، «يجب أن أجده، أحتاجه على وجه السرعة». ثم انفجر في البكاء.

حينها نظر الحارس إليه متعاطفا مع حاله، وقال:

- «انتظر يا سيدي، لا داع للحزن، إذا كنت تريد ذلك الأرميني الملعون بشدة، فلماذا لا تقوم برحلة إلى الخارج بنفسك، اذهب إلى مكتب التسجيل واستخرج جوازًا».

- لم يتفكّر سارانين جيدًا في سخافة ما قاله الحارس. وإنما أصابه الأمل المفاجئ بالبهجة.

هرع سارانين إلى منزله في الحال، ووصل بسرعة البرق إلى حيث مكتب التسجيل المحلي، وطلب من الرجل المسؤول إخراج جواز سفر أجنبي دون تأخير. ولكنه تذكّر فجأة:

- «لكن إلى أين أذهب؟ أين أبحث عنه».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس

بدأ مفعول الوصفة الشريرة يسري ويعطي مفعوله المتوقع، ببطء وإنما بلا هوادة. أصبح حجم سارانين أصغر فأصغر كل يوم. وصارت ملابسه واسعة مهلهلة على جسده.

وتعجب زملاؤه:

- «لماذا يبدو عليك أنك تتقلص؟ هل توقفت عن ارتداء الأحذية ذات الكعب العالي؟».

- «نعم، وفقدت بعض الوزن أيضًا».

- «أنت تعمل بجد أكثر من اللازم».

كانوا يتنهدون في كل مرة يرونه فيها:

- «ما الذي يحدث لك؟».

ومن وراء ظهره، اعتادوا السخرية منه:

- «إنه ينمو بالعكس».

- «بل يحاول تحقيق الرقم القياسي في الضآلة».

لاحظت زوجته ذلك الأمر متأخرة قليلًا، ذلك لأنه لا يكاد يفارق ناظريها، فضآلته المطردة لم تبد لعينيها بذلك الوضوح في البداية، غير أنها قد لاحظت الأمر أخيرًا عندما رأت كيف اتسعت ملابسه وتهدّلت على جسده.

في البداية سخرت من حجم زوجها الذي كان آخذًا في التناقص، ثم بدأت تفقد أعصابها.

- «هذا الأمر يسير من سيء إلى أسوأ». قالت: «أتعجب في الأصل أنني قد تزوجت من ذلك القزم».

خلال فترة قصيرة، كان على كل ملابسه أن تذهب لتعديل مقاساتها، فكل ملابسه القديمة قد تهدّلت عليه، وصار بنطاله يصل حتى أذنيه، وأصبحت قبعته تسقط حتى تغطي أكتافه.

دخل حارس المنزل يومًا إلى المطبخ.

- «ماذا يحدث هنا؟»، سأل بصرامة.

- «أتظنني سببا فيما يحدث؟».

كانت ماتريونا الطباخة السمينة على وشك الصراخ بهذه الجملة قبل أن تتمالك نفسها قائلة:

- «لا شيء يحدث هنا يا سيدي. كل شيء على حاله كالعادة».

- «لقد بدأت تصرفات السيد تتغيّر بشكل مريب، أليس علينا أن نبلغ عنها أصحاب الشأن»، أجابها كبير الخدم بنفس الصرامة، بينما ساعته المعلقة بسلسة في رقبته تتراقص على معدته.

جلست ماتريونا فجأة على صندوق قريب وطفقت تبكي.

- «لا تحتاج لإخبارنا عن تصرفاته الفظّة يا سيدور بافلوفتش». عادت ماتريونا لمحادثته. «إننا جميعًا- والسيدة ذاتها- نتعجب مما حدث له، ولا ندري السبب».

- «ما هو السبب؟ ما هو الأصل وراء الأمر؟». ردد الحارس سؤاله، «هل ما يفعله بنفسه أمر قانوني؟».

- «الأمر الوحيد المريح في هذا الشأن، أنه قد أصبح يأكل بوتيرة أقل». قالت الطباخة من بين نشيجها.

كلما امتد عمره وطالت به الأيام، قصر سارانين وتضاءل.

والعاملون، والخياطون، وكل الذين تعامل معهم سرانين في كل مكان، ما انفكوا يعاملونه بازدراء غير خفي. كان سارانين يحاول جاهدًا إتيان أعماله وأداءها على النحو الأمثل، بصغر حجمه هذا الذي كان يمكّنه بالكاد من الإمساك بحقيبته الضخمة بكلتا يديه، وقد اعتاد أن يستمع إلى الضحكات الخبيثة التي تطلق في أعقابه من حارس البوابة، وسائق التاكسي، وحتى الأطفال.

حتى كبير الخدم، اعتاد أن يفكر فيه كالسيد «صويحب([17]) المنزل».

كان على سارانين ابتلاع كثير من المرار الناتج عن موقفه الحالي؛ كما حدث عندما فقد خاتم زواجه الذي اتسع عليه. أثارت زوجته ضجة حول هذا الموضوع. كتبت إلى والديها في موسكو.

«اللعنة على هذا الأرميني!».كان سارانين يفكّر.

كان كثيرا ما يستدعيه إلى مخيلته ويتخيّله يعدّ له قطرات الترياق.

- «أوف»، يتذمّر سارانين بينما ينتظره.

- «لا تقلق يا عزيزي، هذه غلطتي، وسأصلحها دون مقابل».

حاول سارانين زيارة طبيب، وحين فعل، فحصه الطبيب مُطلِقًا بعضًا من الملاحظات الساخرة، ثم أخبره أنه لا يشكو من أي شيء غريب.

وعندما كان يحاول سارانين زيارة بعض الأشخاص، كان حارس البوابة يرفض دخوله قبل سؤاله:

- «ومن تكون؟».

فيخبره سارانين عن هويته، فيرد الحارس

- «لا أدري، ولكن السيد فلان لا يقابل من هم على شاكلتك».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس

في مقر عمله، في القسم الذي يعمل فيه، بدأ الزملاء في التطلع إليه ثم السخرية منه، خاصة الشباب منهم.

ثم شرعوا بعدها في التذمر واعلان تشاؤمهم من الوضع.

بدأ حارس البوابة يبدي اشمئزازًا واضحًا في كل مرة يرفع فيها معطف سارانين عن كتفه.

للاحتفاظ ببعض من كرامته، بدأ سارانين يمنح الحارس بقشيشًا أكبر وعلى فترات متقاربة، غير أن هذا لم يفده إلا قليلًا، ففد كان الحارس يأخذ المال ويظل على حاله يرمق سارانين بشك.

شرح سارانين لأحد زملائه حقيقة أن الورطة التي يعاني منها الآن إنما هي بتدبير من أحد الأرمان. انتشرت الشائعة بعلاقته مع الأرميني كالهشيم في القسم.

تصادف مرور رئيس القسم ذات يوم بموظفه ضئيل الحجم في رواق المصلحة، فنظر إليه بدهشة ثم تجاوزه عائدا إلى مكتبه.

اضطر الموظفون حينها إلى شرح الأمر لرئيس القسم الذي سأل:

- «هل صحيح أن هذا الأمر قد حدث منذ وقت طويل؟».

ارتعش مساعد المدير

- «كم هو مفجع حقيقة أنك لم تشر للأمر من قبل على الإطلاق»؛ ثم أضاف بحدة من غير أن ينتظر إجابة من مساعده، «وكم هو غريب أنني لم أكن على علم بهذا الأمر بتاتًا. أنا حقا غاضب».

تم بعدها استدعاء سارانين

وصل سارانين إلى غرفة المدير ولاحقته عيون الموظفين تُدينه وتتبرأ منه.

بقلب يبعثر نبضاته شديد الخوف، دخل سارانين إلى غرفة المدير، يناطح الخوف في قلبه الأمل؛ إذ ربما قد استدعاه سيادته بنية تكليفه بمهمة خاصة لا يقدر على إتيانها إلا من هم في مثل حجمه الضئيل، أو لربما رغب في أن يسند له تكليف ما يخص المعرض العالمي أو مهمة سرية وما شابه، ولكن، بعد سماعه للنبرة التي رنّت في كلمة المدير الأولى، تبخرت آماله وانتصر الخوف.

- «اجلس هنا»، أشار سيادته إلى الكرسي المقابل.

تسلّق سارانين الكرسي العالي كيفما اتفق، وحدّق المدير في قدميه التي كانت تتدلى من على الكرسي في الهواء.

- سيد سارانين، هل أنت على دراية بقواعد الخدمة المدنية كما حددتها الحكومة؟».

- «سيادتك.. أنا». تلعثم سارانين في جلسته تلك، يداه على صدره كما ناسك متعبد.

- «لماذا فعلت كذا بنفسك؟». سأل المدير.

- «صدقني سيادتك».

- «لماذا فعلت كذا بنفسك؟». كرر المدير سؤاله.

ولكن سارانين لم يستطع التفوّه بحرف، وبدلًا من ذلك انفجر في البكاء؛ كان قد أصبح بكّاء شديد النحيب موخرًا.

نظر إليه المدير وهزّ رأسه وقال بمزيد من صرامة:

- سيد سارانين، لقد استدعيتك لأبلغك بأن سلوكك غير القابل للتفسير هذا لا يمكن احتماله على الإطلاق «.

- «لكن، سيادتك، أعتقد أنني كنت دائمًا كُفئا في...»، تعثر سارانين في الحديث مجددا، «وبالنسبة لحجمي».

- «نعم، هذا هو السبب الذي نتحدث عنه».

- «لكنني لست مسؤولاً عن هذه المحنة».

- «لا يمكنني أن أحكم إلى أي مدى تدخّل سوء الحظ في هذا الحادث الغريب وغير المناسب وفي تأثيره عليك، وإلى أي مدى كونك لست مسؤولاً عن ذلك، لكنني ملزم بإخبارك، بقدر ما هو مخوّل لي كمدير لهذا القسم؛ فقد أضحى تناقص حجمك الاستثنائي فضيحة مُريعة، وقد انتشرت الشائعات الملتبسة بالفعل في البلدة، ولا يمكنني الحكم على دقتها، لكنني أعرف أن هذه الشائعات تشرح سلوكك من خلال ربطه بالتحريضات على استقلال الأرمن. لا يمكن تحويل الإدارة إلى مقر لتطوير المؤامرات الأرمنية، والموجهة نحو تقليص سلطات الإمبراطورية الروسية. لا يمكننا إبقاء الموظفين الذين يملكون موقفًا سياسيا مُريبا كذلك الذي تملكه».

قفز سارانين من كرسيه لدى سماعه سلسلة الاتهامات البشعة وهتف بصوت مرتفع:

- «هذا أمر من فعل الطبيعة سيادتكم».

- «أقر بغرابة الأمر، ولكن مصلحة العمل تقتضي ذلك».

- ومرة أخرى، كرر المدير نفس السؤال:

- «لماذا فعلت هذا؟».

- «سيادتكم، أنا شخصيًا لا أعرف كيف انتهى بي الأمر إلى هذا الحال».

- «يا لتحكمات الغرائز! أنت تسعى بالفرض للاستفادة من صغر مكانتك، فهكذا يمكنك الاختباء بسهولة تحت تنورة أي سيدة، إذا سُمح لي أن أفسر الأمر على هذا النحو. هذا شيء لا يمكن التساهل بشأنه».

- «لم أفعل هذا أبداً». صرخ سارانين.

- لكن المدير لم يستمع إليه، بل وأضاف:

- «لقد سمعت أنك تفعل ذلك بدافع التعاطف مع اليابانيين ([18]). وهناك بالتأكيد حد أقصى لما يمكننا تحمله من أفعالك».

- «كيف يمكنني أن أفعل ذلك وأكوّن مثل هذه المشاعر سيادتكم؟».

- «لا أدري. ولكني أرجوك أن تكفّ عن هذا. يمكنك أن تحتفظ بوظيفتك، ولكن سيتم نقلك إلى مدينة أخرى، وذلك بالطبع إن أمكنك استعادة حجمك السابق. ومن أجل استعادة صحتك، ستمنح إجازة لشهور أربعة، وأريد منك أن تتأكد من أنك لن تظهر هنا في القسم حتى تسترد حالتك الأولى، وسيتم إرسال أي أوراق تخصك إلى منزلك. إلى اللقاء».

- «لكن سيادتكم، لماذا أمنح إجازة، أنا قادر تمامًا على أداء مهام عملي!».

- «إجازة من أجل استعادة صحتك».

- «ولكني على خير ما يرام».

- «من فضلك. لا تزد».

مُنح سارانين إجازة لمدة أربعة شهور.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السابع

بعد فترة قصيرة من بداية إجازة سارانين، وصل والدا آجلايا إلى المنزل. وعلى الغداء، تسلّت آجلايا كثيرًا وظلّت تسخر من زوجها وحاله، ثم انصرفت بعدها إلى غرفتها.

دخل سارانين إلى غرفة مكتبه، كانت تبدو له ضخمة، في غاية الاتساع مؤخرًا. تسلق حتى أعلى الأريكة، وجلس في إحدى زواياها، يبكي.

كان أمره المحير يرهقه ويعذب حاله.

لماذا عليه أن يلاقي كل هذا القدر من سوء الحظ؟ كان حاله مريعًا.

يا لها من حماقة مريعة.

- «لماذا؟ آه، لماذا فعلت ذلك؟».

فجأة، سمع سارانين أصواتًا مألوفة تأتي من جهة الغرفة الأمامية، ارتعش من الخوف، ذهب حتى الحوض على أطراف أصابعه، عليهم ألا يلاحظوا عيناه المغرورقة بالدموع. حتى غسيل وجهه صار صعبًا، عليه أن يتسلق كرسي للوصول إلى الحوض.

دخل الضيوف فجأة إلى حيث كان، استقبلهم سارانين، وانحنى في تقدير، وبصوت رفيع تفوه بكلمات متلعثمة غير مفهومة. حدّق فيه والد آجلايا بعيونه الواسعة. كان رجلًا ضخمًا، عريض المنكبين، بعنق متدرج بطبقات من اللحم، ووجه أحمر. كانت آجلايا بطولها وعرضها لا تصل حتى إلى كعبيه.

وقف الرجل أمام صهره ثابتًا، بأرجل متباعدة، ونظر إليه متفحصًا؛ سلّم على سارانين بحذر، وانحنى ثم قال بصوت خفيض:

- «لقد جئنا لرؤيتك».

كانت نيته واضحة في التحدث بلباقة.

من خلفه، دخلت والدة آجلايا؛ امرأة خبيثة فظّة، أفسحت لنفسها طريقا وقالت بصوت أجش:

- «أين هو؟ أريني إياه هذا المسخ؟».

نظرت من فوق رأس سارانين مباشرة، قاصدة أن تتجاهله، وارتعشت الزهور التي تزيّن قبعتها بينما توجهت نحو سارانين الذي قفز إلى ناحية أخرى.

بدأت آجلايا في البكاء، وأشارت إلى سارانين:

- «ها هو يا أمي».

- «أنا هنا يا أمي» قالها سارانين متوددًا إلى السيدة.

- «أيها الشرير، ماذا فعلت بنفسك حتى تقلصت وانسحقت إلى هذا الحد؟».

ضحكت الخادمة على الجملة الأخيرة.

نهرتها آجلايا بصوت حازم ووجه محمر.

- «لا تسخري من سيدك يا فتاة»، «هيا يا أمي لنذهب من هنا».

- «لا! أخبرني أيها الشرير، ماذا كان هدفك من أن تصير قزمًا لهذا الحد؟».

- «لا، انتظري لحظة هنا أيها الأم الفاضلة!». قاطعها والد آجلايا.

التفتت الأم نحو زوجها

- ألم أخبرك ألا تزوجها برجل لا لحية له؟ أرأيت، لقد كان ما توقعت تمامًا».

نظر الأب نحو سارانين، باذلًا من عظيم جهده لتوجيه دفة الحديث نحو السياسة.

- «اليابانيون مثلًا، إنك لا تراهم قومًا ذوي أحجامًا ضخمة، ولكنهم يبدون للجميع أناسًا من نسل عرق عبقري، أو لنقول، مغامر».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثامن

ظلّ سارانين يتضاءل ويتضاءل، حتى صار بإمكانه أن يمر من تحت طاولة الطعام دون مشقة. لم يكن سارانين بعد قد بدأ بالاستفادة من إجازته الطويلة، ولكنه لم يخالف الأوامر ولم يذهب يومًا إلى مكتبه، ولم يصله أي نبأ عن نيتهم في نقله إلى أي مكان.

كانت آجلايا أحيانا ما تسخر منه، وأحيانا تظل تصيح فيه غاضبة تقول:

- «إلى أي مكان في المدينة يمكنني أن أذهب بصحبتك؟ يمكنني تخيل كم العار واللوم الذي سأعانيه من مجرد السير بجوارك!!».

أصبح الوصول من المكتب إلى غرفة الطعام، أمر شاق للغاية، ورحلة يستلزمها بعض التحضيرات الهامة المسبقة، ناهيك عن تسلق كرسي المائدة، الذي يحتاج لهمّة وإرادة.

ومع هذا، كان التعب والمشقة التي يلاقيها مقبولة الأثر، فقد صارت تفتح شهيته وتشجعه على تناول الطعام أملا في أن يكبر حجمه، لهذا علّق سارانين كل آماله على نتيجة تناوله للمزيد والمزيد منه. كان مقدار الطعام الذي يتناوله لا يتناسب إطلاقًا مع ضآلة حجمه. على الرغم من ذلك لم ينفعه هذا الأمر مطلقًا، وصار يصغر وينكمش. كان أسوأ ما في الأمر، هو أن ذلك الانكماش كان يحدث في أكثر الأوقات حرجًا، فيبدو سارانين كهاو يقوم بالخدع السحرية الساخرة.

حاولت آجلايا أن تستغل صغر حجمه، وتلحقه بمدرسة كولد صغير، فوصلت حتى أقرب مدرسة، غير أن حديث مدير المدرسة لم يشجعها.

طلبت المدرسة بعض الوثائق. تبيّن لها أن الخطة غير عملية.

بمزيد من شديد الحيرة قال مدير المدرسة لآجلايا:

- «لا يمكننا أن نتعامل مع موظف كبير في الخدمة المدنية كطالب. ماذا يمكن أن نفعل به؟ لنفترض أن المعلم أخبره أن يقف في الزاوية، فردّ عليه قائلا: أنا فارس متوّج بميدالية «آنا كروس ([19])». سيكون الأمر حينها محرجًا للغاية.»

اتخذت ملامح آجلايا انطباعًا متوسلًا وبدأت تناشد المدير.

لكن مدير المدرسة ظل على وضعه؛ رافضًا لا يتزعزع رأيه.

أضاف المدير بعناد: «لا»، لا يمكننا أن نقبل بالتحاق موظف مسؤول بصفوف المدرسة، ولا يوجد بند واحد في قوانينا يمكننا التحايل عليه بهذا الشأن، وسيكون من المحرج للغاية أن نتواصل مع السلطات بمثل هذا الاقتراح. «سيرفضون الاستماع إلينا من الأصل، وستكون العواقب غير حميدة. لا، لا يمكن القيام بهذا على الإطلاق. يمكنك أن تتواصلي مع المسؤولين بشأن الأمر بنفسك إن كنتِ تُصرّين».

لكن آجلايا لم تستطع أن تتخذ قرارًا نهائيًا بشأن الذهاب إلى المسؤولين باقتراح كهذا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل التاسع

استقبلت آجلايا ذات يوم زيارة من رجل شاب، كان شعره مصففًا إلى الوراء وله لمعة وطراوة محببة. قدم الشاب إليها التحية بتقدير زائد وعرّف نفسه:

- «أنا أمثل شركة «ستريجال أند كو»، محل راق يقع في أفخم مناطق التسوق في المدينة، ونخدم العديد والعديد من العملاء ذوي المراكز الهامة والمنتمين لأرقى الطبقات الاجتماعية.

راقبت آجلايا مندوب الشركة اللامعة بحذر، وأشارت له بحركة ضعيفة نصف مرحّبة للجلوس. جلست وظهرها للنور وأمالت جذعها نحو الشاب في وضع الاستماع لحديثه.

أكمل الشاب ذو الشعر المصفف اللامع حديثه:

- «لقد نما إلى علمنا أن زوجك قد أظهر اهتمامًا فريدًا باختيارات معينة تخص ضآلة الحجم وطبّقها على نفسه. لهذا، فشركتنا التي تهتم بتقديم آخر وأهم صيحات الموضة للرجال والنساء، تتشرف بتقديم عدد من البذلات الفخمة المصممة تماشيًا مع آخر صيحات الموضة الباريسية، وسيكون ذلك كله بلا تكلفة من جانبكم.

- «مجانًا؟» سألت آجلايا مندهشة.

- «ليس فقط مجانًا يا سيدتي، وإنما بمقابل مادي ندفعه لكم، كل ذلك بشرط بسيط سهل التنفيذ».

كان سارانين يستمع إلى الحديث بطوله، وعندما لاحظ كونه محور الحديث، أزاح نفسه بأقصى سرعة استطاعها إلى داخل الغرفة. بدأ سارانين يلف حول الرجل ذو الشعر اللامع المصفف يستطلعه، ثم أخذ يسعل ويهز رأسه، منزعجًا من كون السيد مندوب الشركة لا يعيره أقل اهتمام.

في النهاية توجه بكامل جسده نحو الرجل الجالس، وصرخ بصوته الرفيع:

- «أعتقد أن أحدًا لم يخبرك بوجودي في المنزل، أليس كذلك؟».

قام الرجل ممثل الشركة العظيمة واقفًا، ثم انحنى لسارانين في تقدير، بعدها عاد للجلوس مُلتفتًا نحو آجلايا ومواليًا حديثه إليها بالكامل:

- «فقط شرط واحد مُلزم».

زفر سارانين بازدراء، وانفجرت آجلايا في الضحك، ولمعت عيناها ثم سألت الرجل الشاب:

- «حسنا! أخبرني، ما هو الشرط؟».

- «شرطنا يتضمن أن يوافق السيد الفاضل على الجلوس في واجهة المحل عندنا كإعلان حيّ متحرك».

أطلقت آجلايا ضحكة مجلجلة، وقالت

- «عظيم، أوافق على كل ما قد يبعده عن نظري».

- «لا أوافق بتاتًا»، صرخ سارانين بصوته الرفيع، «لا يمكنني الموافقة على أمر كهذا. أنا ـ الموظف المهم بالخدمة المدنية، بلقب الفارس الذي أحمله، أجلس في واجهة محل كإعلان – لماذا، هذا عرض سخيف مبتذل».

- «اصمت»، صرخت آجلايا، «ليس أنت من يطلبون منه الموافقة».

- «ماذا؟ لست أنا؟»، أكمل سارانين صراخه، «إلى متى عليَّ أن أتحمل كل الغرباء وإهاناتهم؟».

- «لا يا سيدي»، تدخّل الرجل الشاب في الحديث، «ليس بشركتنا العظيمة أي تعامل مع الغرباء، نتعامل فقط مع الأرثوذكس، وبعض اللوثريين، وليس لنا صلة بأي عملاء من اليهود».

- «لا أرغب في الجلوس في واجهات محلات»، صرخ سارانين مجددًا.

ضرب سارانين بقدميه الأرض من تحته، فأمسكته آجلايا من ذراعه وسحبته حتى غرفة النوم.

- «إلى أين تأخذينني؟ لا أريد المغادرة».

- «سأجعلك تصمت بطريقتي»، قالت آجلايا.

أغلقت آجلايا الباب

- «والآن ستتلقى ضربًا يوجعك» قالت آجلايا من بين أسنانها.

بدأت آجلايا تضربه فعلا، وكان سارانين يهتز متألمًا غير ذي حيلة بين ذراعيها العملاقة.

- «أملك كل سلطة عليك، يا مسخي الحبيب. كل ما أريد فعله بك سأفعله. يمكنني أن أحشرك في جيبي ـ كيف تجرؤ على معارضتي! لا يهمني مقامك العالي هذا الذي تدّعيه، ستنقلب سماؤك فوق رأسك، وهذا وعد».

- «سأشتكيكِ إذن»، قال سارانين.

ثم أدرك بعد أن قالها أن مقاومته لن تفيد، فقد كان صغيرًا جدا، وآجلايا فيما يبدو قد قررت استخدام كل قوتها في التعامل مع الأمر.

- «حسنًا إذن! سأجلس في واجهة محل ستريجال وأجلب لك العار، وسأرتدي كامل نياشيني بينما أفعل».

ضحكت آجلايا.

- «بل سترتدي كل ما يمنحك ستريجال لتلبسه».

حملت آجلايا زوجها إلى الغرفة حيث يجلس ممثل الشركة، ورمت به أمامه وصرخت:

- «خُذه! احمله الآن وارحل، وستدفع المقابل النقدي مقدمًا، كل شهر».

كانت تتحدث بصوت عال هستيري.

أخرج الشاب محفظته، وعدّ منها مائتي روبل.

- «هذا غير كافي»، قالت آجلايا.

- «ليس مصرحًا لي بأن ادفع أكثر من هذا، بنهاية الشهر تتسلمين الدفعة القادمة»، قالها الشاب مبتسمًا في تقدير.

بدأ سارانين يجري في الغرفة

- «في واجهة المحل! في واجهة المحل!»، ظل سارانين يصرخ، «أيها الأرميني الملعون، ماذا فعلت بي؟».

وفجأة، في هذه اللحظة تحديدًا، انكمش سارانين بمقدار ثلاثة إنشات أخرى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل العاشر

وماذا عن دموع سارانين، وبؤسه ورثائه؟ وماذا يعني «ستريجال وشركاه» بمثلها؟

لقد دفعوا، ووضعوا الاتفاق في حيز التنفيذ استجلابًا لحقوقهم، هذه ببساطة، هي قواعد الرأسمالية التي لا ترحم.

تُخضع الرأسمالية لقواعدها حتى هؤلاء الذين يعملون بمناصب عُليا في الخدمة المدنية والحاملين لميداليات شرف رفيعة، وتجبرهم على التخلي لأوضاع مهينة تتناسب ربما مع حجمهم الضئيل ولكنها تأبى كل اتفاق وتوافق مع كرامتهم الغالية. في أكثر الحُلات أناقة، ظلّ الـ «المسخ» الصغير يروح ويجئ بطول فاترينة المحل ـ محدَّقا في نساء جميلات حتى بأحجامهن الضخمة، وملوّحا بقبضته في تهديد للأطفال الضاحكين لمنظره ومرآه.

زحام كثير عند واجهة محل ستريجال أند كو

يتدافع الموظفون مُسرعين ومتخبّطين في محل ستريجال أند كو، طلبات كثيرة لعملاء كُثر قد كُلف بها محل ستريجال أند كو

في بحر الشهرة يتمرّغ محل ستريجال أند كو

قرار بزيادة عدد الورش المُصنّعة للأزياء في محل ستريجال أند كو، أغنياء هم مالكي محل ستريجال أند كو

يشترون بيوتا باسم محلهم ستريجال أند كو

لا تنقصهم الشهامة، يطعمون سارانين بسخاء، ولا يتأخرون عن دفع مستحقاته لزوجته، نتكلم بالطبع عن محل ستريجال أند كو، تتسلم آجلايا الآن ما يساوي ألفًا من الروبلات

ويوفّي الدخل المتزايد طلباتها ويصب في صالحها

وصالح معارفها

ومُحبيها

ومأساتها

وعربتها

وقصرها الجديد

آجلايا الآن سعيدة هانئة، ولا زال حجمها ينمو باضطراد. ترتدي أحذية بكعوب عالية، وتختار قبعات بزينة ضخمة.

عندما تزور آجلايا زوجها، تظل تداعبه وتطعمه بيديها كما العصفور، يتقدم حينها سارانين بخطوات صغيرة ويقف فوق الطاولة ببذلته الرسمية ذات الذيل القصير

ويزقزق بكلمات، بنبرة حادة كطنين الناموس، وإنما غير مسموعة بما يكفي لتفسيرها.

يمكن للناس الصغار الحديث بالطبع، ولكن صوتهم الرفيع الأشبه بزقزقة لا يمكن للأشخاص من ذوي الحجم الكبير سماعه؛ لا آجلايا، ولا ستريجال ولا أي أحد آخر. تسمع آجلايا وعُمّال المحل من حولها زقزقة سارانين ونحيبه، فتضحك وتتصرف بعدها.

يحمل العمّال بعدها سارانين مجددًا إلى الواجهة، حيث محل إقامة قد أُعد له خصيصًا، غير أن واجهة عُشه الصغير مفتوحة للعيان من المشاهدين خارج الواجهة.

لا يمل الأطفال الملاعين من مشاهدة عارض الأزياء يجلس على الطاولة، يستعد لكتابة عرائضه وشكواه. عرائضه الضئيلة التي يطالب فيها بحقوقه، التي أهدرت من قبل آجلايا وستريجال أند كو.

يكتب، ويضع الورقة بداخل المغلف. ويضحك الملاعين.

في ذات الوقت، الذي تجلس فيه آجلايا في عربتها الفاخرة، تستعد للذهاب في نزهة قصيرة قبل ميعاد الغداء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الحادي عشر

لم يتوقّع أحد؛ لا آجلايا، ولا ستريجال كيف ستكون النهاية. كانوا سعداء بالأمور على حالها، وقد بدا لهم أن تلك الغيمة التي تُمطر عليهم ذهبًا لن تتبخّر أبدًا ولن تُشرق عليها شمس. غير أن النهاية حانت بالفعل، نهاية عادية جدًا، كما يمكن للمرء أن يتوقعها تمامًا.

كان سارانين لا ينفك يتضاءل بشكل يومي، وكان عُمال المحل يغيرون له بذلاته كل يوم لمقاسات أصغر.

وفجأة، تحت عيون العُمال المندهشة، بينما كانوا يساعدونه في ارتداء بنطالًا جديدًا، تضاءل حجم سارانين حتى أضحى متناهي الصغر. سقط من البنطال، وصار صغيرًا كما رأس دبوس.

وإذ هبّت نسمة خفيفة بالمكان، ارتفع سارانين الأشبه بذرة غُبار في الهواء، ودار في الفضاء القريب دورتين، اختلط فيهما مع حفنة من ذرات الغبار رقصت وارتفعت نحو ضوء الشمس. اختفى سارانين.

ذهبت كل محاولات البحث عن سارانين هباء. لم يتمكن أحد من العثور عليه

احتار دليل الجميع، وطار صوابهم؛ آجلايا، ستريجال، الشرطة، رجال الدين، وحتى السلطات الحاكمة.

كيف يمكنهم تبرير اختفاء سارانين؟

أخيرًا، وبعد اللجوء لأكاديمية العلوم ومناقشات ومباحثات، تم تقييد حالته باعتباره مبعوثًا في مهمة بحث لأغراض علمية.

بعدها نسى الجميع أمره.

هكذا راح سارانين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أندرييه بلاتونوف

1899 – 1955

روزا

أندريه بلاتونوف

حرق الألمان سجن روسلافل([20]) ونزلاؤه، غير أن جدران الزنازين وقفت شامخة على حالها؛ محتفظة برسائل قصيرة حفرها عليها قاطنوها.

«١٧ أغسطس، عيد ميلادي، أجلس هنا وحيدًا، جائعًا. مائتا جرام من الخبز، ولتر من الماء الآسن، يا لها من وليمة عيد. عام ميلادي، ١٩٢٧، سيميونوف».

كتب سجين آخر إضافة قصيرة للرسالة السابقة، تضمّنت كلمة واحدة عن مصير سيميونوف؛ «قُتل».

في زنزانة أخرى، وجّه أحد السجناء رسالة إلى أمه:

لا تبكي يا أمي العزيزة، ولا تنوحي

لا تتنهدي حسرة ولا تتأوهي مرارا

لن تظلي وحيدة في دربك طويلًا

إنني أنظر عبر قضبان زنزانتي، ويعلم ربي وحده

كم ترحل أفكاري إليكِ

وكم يفيض قلبي بدموعي

لم يوقع ذاك السجين اسمه. لم يظن أنه يحتاج للتوقيع، فقد خسر حياته بالفعل، وكان على وشك مفارقة الحياة إلى عالم النسيان الأبدي.

في نفس الزنزانة، وتحديدًا في أحد أركانها، كان هناك نقش لرسالة لا بُدَّ أنها حُفرت باستخدام ظفر إنسان: «زُلوف كان هنا». كانت تلك أكثر السير الذاتية تواضعًا واختصارًا؛ كان هناك رجل يُدعى «زُلوف»، عاش وعانى في الحياة، وقد أُطلق عليه الرصاص هنا في سجن روسلافل، وسُكب عليه البنزين وحرق جسده ـ حتى لا يتبقى من الرجل سوى كومة رمادية من رماد عظامه المحترقة، والتي ستختلط بتراب الأرض ولا يبقى منها أي أثر، مختفية بين غبار الأرض مجهول الأصل والمآل.

بجوار رسالة «زُلوف»، رسالة أخرى محفورة على الجدران لشخصية مجهولة تُدعى «روزا»:

- «أريد أن أبقى حيّة. الحياة جنّة، ولكنهم لا يريدون لي أن أحيا، سوف أموت. أنا روزا».

روزا. كان اسمها قد نُقش على اللون الأزرق القاتم لجدران الزنزانة باستخدام ظفر أو ربما سن قلم رفيع جدا، صنع الزمن وعوامل الرطوبة من ذاك اللون الأزرق،

مساحة شاسعة وخطوط جعلت الجدار أشبه بخريطة تتقاطع عليها البلاد والبحار ـ بلاد للحرية، زارها السجناء بخيالهم بينما ظلوا لسنوات محدّقين في الجدار الأزرق الداكن.

من كانت روزا الحبيسة هذه، وأين هي الآن؟ هل قُتلت وسقطت مقطوعة الأنفاس هنا عند باحة السجن؟ أم حاباها القدر ومنحها فرصة ثانية للحرية والحياة على الأراضي الروسية، في الحياة التي هي الجنة اقتباسًا من كلمات روزا ذاتها؟ ومن كان «زُلوف»؟ لم يصل عنه أي خبر عدا أنه عاش على الأرض يومًا من يُسمي «زُلوف»..

لم نستطع أن نتحرى أي إثبات على وجود من يُدعى «زلوف»، ولكن اتضح أن روزا كانت ضحية وسط ضحايا وشهداء ذهبوا عن الحياة، وهكذا عاشت قصتها في أذهان هؤلاء الذين استطاعوا الهرب من الموت. كان السجناء الذين تراصوا في باحة السجن في انتظار طلقات الرصاص، يتعزون ويتصبرون بذكرى روزا. كانت روزا قد اقتيدت إلى الباحة يومًا ليتم إعدامها مثلهم رميًا بالرصاص، وبعد أن أطلقوه عليها سقطت على الأرض، ولكنها كانت ما تزال حيّة، جُمعت جثث هؤلاء الذين أطلق عليهم الرصاص قبلها ورُصت فوق جسدها الواحدة تلو الأخرى، حاوطوا الكومة بالقش، ثم سكبوا عليها البنزين وتركوها تشتعل. لم تؤذ جسدها حقا أي من الرصاصتين التي قد أطلقتا عليها، ونظرا لوجودها في آخر كومة الجثث، فقد حمتها الكومة ولم تمسها النيران، لذلك عندما عادت روزا إلى وعيها، نهضت من تحت ما تبقى من الكومة وهرولت في عتمة الليل نحو الحرية، عابرة حدود السجن التي حالت أنقاضًا بعد أن قُصفت بالقنابل وسوّت بالأرض.

ولكن في اليوم التالي، قبض الفاشيون على روزا وأودعوها السجن مرة أخرى، وهناك عادت سجينة من جديد تنتظر حكما آخر بالقتل.

أقرّ كل من رأى روزا بأنها كانت جميلة، جمالا كان يتعزى به الحزانى والمهمومين لاستدعاء الفرحة والراحة من وحيه.

كان شعر روزا الجميل داكنًا ومجعدًا، وعيناها الشابتان بلونهما الرمادي تنيران في وجه الناظرين بفعل روحها الصادقة، ورغم أن وجهها كان منتفخًا قليلًا من أثر الجوع والحبس، ولكنه كان رقيقًا صافيًا. لم تكن روزا ضخمة، ولكنها كانت قوية كصبي يافع ومحترفة في استخدام يديها، كانت تصنع الفساتين، كما أنها عملت لفترة في مهنة كهربائي. أما الآن، فقد كانت عاجزة عن فعل أي شيء سوى التأسف على حالها؛ فقريبا تبلغ عامها التاسع عشر. لم يبد على روزا أنها تبلغ من العمر أكثر مما تبلغ حقًا، ذلك أنها كانت تستطيع دائما التعالي على حزنها، فلم تجعله يومًا يصيبها لا بالعَجْز ولا العَجَز، كانت روزا تحب الحياة.

للمرّة الثانية ظلت روزا في انتظار الحكم عليها بالموت في سجن روسلافل، ولكن انتظارها كان هباء؛ فقد كان للألمان في شأنها أمرًا آخر. أدرك الألمان أنهم عندما يقتلون أحدهم، لا يتبقى لديهم بعد ذلك أي مما يفعلونه بشأنه؛ تنتهي سلطتهم على الأفراد بمجرد وفاتهم. بدون سلطة على الآخرين، شعر الألمان بأن الحياة مملة

وغير ذات نفع. كانوا يحتاجون لأناس يعيشون حولهم، أو بالأحرى يعيشون نصف حياة؛ كانوا يحتاجون لعقول يمسخونها، وقلوب تنبض من الأسى لا الفرح، من الخوف من الموت حينما يمنيهم أحد بالحياة.

تم استدعاء روزا للاستجواب. كان المحقق على يقين من أنها كانت تعرف كل شيء عن بلدة روسلافل وعن الحياة الروسية، كما لو كانت روزا نفسها هي القوة السوفيتية بأكملها. لم تكن روزا تعرف كل شيء؛ وحتى ذلك الذي عرفته، لم تكن قادرة على البوح به. في مكتب المحقق، شربت البيرة الباردة من ميونيخ، وأكلت النقانق الحارة وارتدت ثوبًا جديدًا. هكذا أشار المحقق إلى مواهبه الصغيرة التي مارسها عليه عندما تحدث إلى مرؤوسيه، أولئك الذين وصفهم السجناء بـ»أسياد العالم الأخر». أحضروا من أجل روزا قنينة بيرة مملوءة بالرمل، وتابعوا ضربها بهذه الزجاجة على ثدييها وبطنها، حتى تعدم أي أمل في فرصة أن تصبح أما في المستقبل. ثم تم جلدها بقضبان حديدية مرنة أحرقت جسدها حتى العظم، وعندما كان تنفسها يتعثر، وتصبح في شبه غيبوبة، كانت روزا «ترتدي ثوبًا جديدًا»: يُلف سلك كهربائي أسود قاسي حولها بإحكام، حتى تنطبق آثاره في أعماق عضلاتها وبين أضلاعها، بحيث تظهر ذات الأعراض التي تأتي قبل الموت كخروج الدم وتفصد العرق على سطح جسم السجين؛ بعدها أعيدت روزا إلى زنزانة إنفرادية وتُركت وحيدة على الأرضية الأسمنتية؛ كانت فقرة التعذيب قد استنفدت الجميع – بما فيهم المحقق و «سادة العالم الأخر».

ماذا كان يفترض بالألمان ليفعلوا بعد ذلك؟ كانت الفتاة الروسية ترفض الانصياع؛ وكانوا قادرين تمامًا على قتلها هناك في أي وقت، ولكن لا سيطرة يمكن فرضها على الأموات.

في حياتها، كما في موتها، أثارت هذه الزهرة الروسية الشك في مبدأ الحرب من أساسه، وهددت فكرة السلطة والامتلاك والمنظمة الجديدة للإنسانية. لم يكن من الممكن لتلك الأسطورة أن تعيش وتستمر - وإلا فهل فاز الألمان وحطوا على الأرض وامتلكوها هباء؟

فقد المحقق العسكري الألماني كل قدرته على التفكير الصائب في سجن روسلافل. على من ستجوز ممارسة السلطة عندما يُترك الشعب الألماني للعيش في المقبرة العظيمة التي تتخلّف بعد نهاية كل أمة أخرى؟

بعد أن تبدد مزاجه الجيد وحماسته للعمل، استدعى المحقق كويك هانز، الذي نال ذاك اللقب بسبب كفاءته السريعة. عاش يوهان فوغت([21]) لفترة طويلة في الاتحاد السوفيتي وكان يفهم الروسية جيدًا. أمر المحقق كويك هانز بإحضار بعض الفودكا، ثم سأله كيف يمكن خلق حالة يصل فيها الإنسان للبيْن بيْن، لا هو حي ولا ميّت.

- «أمر سهل جدا!» قال هانز بعد أن فهم من فوره غرض المحقق.

شرب المحقق الفودكا. فتحسّن مِزاجه وأمر هانز بالذهاب إلى زنزانة روزا والتحقق مما إذا كانت حية أم ميتة.

ذهب هانز وعاد مرة أخرى. وذكر أنه وجد روزا ما زالت تتنفس. كانت نائمة، مبتسمة في نومها. وأضاف تعليقه الخاص على الأمر: «ليس من المفترض أن تكون ضاحكة هكذا في نومها».

وافق المحقق على أن روزا لم يكن من المفترض أن تضحك؛ هو لا يرى أنها ينبغي لها أن تعيش على الإطلاق، لكن قتلها لن يكون مفيدًا أكثر لأنه سيؤدي إلى انخفاض في القوى العاملة الحية ولن يكون له أي تأثير على بقية السكان. كان المحقق يؤمن أن روزا يجب أن تصبح مثالًا حيًا ثابتًا من شأنه أن يغرس الخوف في أوساط الشعب؛ صورة للعذاب المريع الذي سيصيب كل من عصى؛ لم يكن الموتى قادرين على أداء مثل هذه الخدمة وتقديم هذه الصورة المفيدة، كل ما يستحضره الموت فقط هو تعاطف الأحياء وميلهم قليلًا إلى الشعور بالخوف.

- «شبه حيّة، هذا هو ما تستحقه!» قال كويك هانز. «سأجعلها مخبولة إلا قليلا».

- «إلا قليلا؟ كيف؟». سأل المحقق.

- «تاج الرؤوس». قال هانز مُشيرا إلى عقله. سأمارس ضغوطًا قصوى على عقلها، وأعلم تمامًا الأداة المناسبة لفعل ذلك».

- «ولكن روزا ستموت!». قال المحقق.

- «ستتعافى»، قال كويك هانز بثقة، «سأتعامل معها بحرص، لن أجعلها تصل حتى حافة الموت».

- «هذا الرجل نموذج مصغر من الفوهرر ([22])» قالها المحقق في نفسه وأمر هانز بأن يبدأ التنفيذ.

خرجت روزا من السجن ذات صباح يوم ما، خرجت ترتدي ملابس مهترئة ـ أسمال تمزقت في أثر العقاب الجسدي والضرب في مراحل العقاب الأولى ـ وكانت قدماها حافيتانِ حيث ضاع حذاءها الذي كان قد حُفظ في أمانات السجن. كان الخريف قد حلّ، ولكن روزا لم تكن تشعر ببرودة الجو الخريفية من حولها. خرجت روزا من روسلافل وعلى وجهها الصبوح ابتسامة راضية خجولة، غير أن نظرتها بدت غائمة ولا مبالية، وكانت عيونها ناعسة. استطاعت روزا أن ترى كل ما حولها بوضوح، الأرض، والمنازل، والناس، إلا أنها لم تستطع أن تفهم معنى لكل ما تراه، وتحرك قلبها وجلًا برعب مقيم من كل ما ظهر حولها من أشخاص وأشياء.

كانت روزا تشعر أحيانًا أنها بداخل حلم طويل، وبدأت تسترجع ذكريات ضعيفة غير مؤكدة عن عالم آخر كان لكل ما حواه معني ولم يكن يخيفها بذات القدر الذي تحسه نحو العالم الآن. ولكن، ها هي الآن، قليلة الحيلة منهكة بفعل عقلها المخدّر، تبتسم بخوف لكل شخص تراه أو شيء تصادفه في الطريق. أرادت أن تستيقظ فقامت بحركة مفاجئة وبدأت تجري، ولكن هذا الذي تظنه حلمًا لم يفارقها، وعقلها الذي خبا لم يعد من حيث ذهب.

وصلت روزا إلى حيث منزل أحدهم ودخلته، كانت هناك امرأة عجوز في الغرفة تصلي أمام صورة للعذراء.

- «ولكن أين روزا؟»، سألت روزا. كانت لديها رغبة في البحث عن نفسها ربما تجدها وتراها حيّة تنبض بالصحة؛ لم تعد روزا تعرف من هي بعد الآن.

- «روزا؟ من روزا؟»، قالت السيدة العجوز غاضبة.

- «كان هناك فتاة تسمى روزا»، قالت روزا بوداعة وقلة حيلة.

نظرت السيدة إلى ضيفتها وقالت:

- «لقد كانت هناك فتاة تدعى روزا، ولكنها غير موجودة الآن. اذهبي واسألي الفاشيين عن مصيرها، هم يعرفون كل شيء، إنهم لا يتوانون عن إحصاء عددنا، وقد أضحينا بالفعل أقل عددًا فأقل».

- «أنت سيدة غاضبة شريرة»، قالت روزا بنبرة شجاعة، «كانت روزا حيّة، ولكنها خرجت إلى الحقول الشاسعة، وستعود مجددًا عمّا قريب».

نظرت السيدة العجوز نحو ضيفتها المشرّدة مرة أخرى وقالت: «اجلسي يا فتاتي، اجلسي معي هنا قليلا».

فعلت روزا ما طلبت منها العجوز، التي اقتربت منها وفحصت ملابسها ثم قالت: «يا للعزيزة المشرّدة المسكينة»، قالتها وشرعت في البكاء، كانت المرأة هي الأخرى حزينة، وإن كان السبب مختلفًا، ولكن حزن الفتاة قد ذكّرها تمامًا بحزنها الخاص المختلف.

حمّمت السيدة العجوز روزا بعد أن خلعت عنها ملابسها، وغسلت عنها قذارات السجن، ضمدت جروحها، وألبستها ثوبًا جميلًا كانت تمتلكه من أيام شبابها، فبدت روزا كعروس، خاصة بعد أن ألبستها العجوز حذاء من الساتان، وأطعمتها من القليل الذي تملكه في المنزل.

لم يسعد روزا أي من محاولات العجوز، وقرب المساء رحلت عن منزل السيدة الطيبة. أرادت أن ترحل عن روسلافل، ولكنها لم تجد نهاية للطريق، فظلّت تسير وتتخبّط في الطرقات طويلًا طويلًا دون وعي.

قبضت إحدى الدوريات الليلية على روزا وأرسلتها حتى مكتب القائد، الذي سألها وتحرى قليلا بشأنها ثم عاد لإطلاق سراحها في الصباح التالي؛ على أنهم قد خلعوا عنها فستانها الجميل وحذائها الستان، وألبسوها بدلا عنهم بعض الملابس المهترئة التي كانوا قد احتجزوها من امرأة قد قبضوا عليها قبل وقت قريب. لم يستطع مكتب القائد أن يعرف من عساه قد ألبس روزا هذه الملابس الجميلة. خرست روزا تمامًا عن أي إجابة.

في الليلة التالية اقتيدت روزا مرة أخرى إلى مكتب القائد. كانت حينها ترتدي معطفًا وتلف وشاحًا دافئًا حول رأسها، وقد أضاف الهواء الطلق والطعام الجيد بهاء

وضياء ظهر على ملامحها، كان الأناس الباقون في المدينة يقدرون روزا كثيرًا فيما يبدو، وعدّوها رمزًا للبطولة أزاح ظل اليأس عن هؤلاء الذين عدموا الأمل وتحطمت قلوبهم.

روزا نفسها لم تكن تدري ماذا يفعل بها، كان كل ما تفكر فيه هو رغبتها في الخروج من المدينة، بعيدًا نحو تلك السماء الزرقاء الباهتة التي تسطيع مشاهدتها على مدد النظر ليس بعيدًا عن المدينة. كان المكان هناك نظيفًا ورحبًا، كان يمكنها أن تبصر هناك ذاك الطريق الطويل. كانت تجوب تلك الطرقات روزا أخرى، تلك الروزا التي كانت تحاول بصعوبة ووهن تذكّرها، كانت ستلحق بها لو أمكنها أن تخرج خارج المدينة، وستحاول لمس يديها، وكانت هذه الروزا ستأخذها بعيدًا للأبد، للمكان الذي نشأت فيه وعرفته، للمكان الذي لم يكن عقلها فيه يؤلمها لهذا الحدّ، ولم يكن قلبها يتوجع بفعل هذا القدر من الحزن؛ الحزن على فراق الناس الذين ما زالوا يعيشون بالفعل على نفس الأرض، غير أنها ما باتت تتذكرهم أو يمكنها التعرف إليهم.

ظلّت روزا تعاود سؤال الناس أن يصحبوها إلى الحقل القريب خارج المدينة، لم تعد تتذكر الطريق إليه وحدها، ولكن عوضًا عن إجابتها إلى طلبها، اعتاد الناس دعوتها إلى منازلهم، إطعامها، الحديث إليها برقّة ودعوتها للراحة قليلا في ضيافتهم. استمعت روزا للجميع، وفعلت كل ما طلبوه منها، ولكنها كانت دائما تعاود سؤالهم إلى أن يأخذوا بيديها ويصحبوها نحو الحقل خارج المدينة، حيث البراح وحيث يمكنك رؤية ذلك الطريق الممتد على مرمى البصر صافيًا كما السماء من فوقه.

حقق صبي صغير أمنية روزا؛ أخذها وقادها إلى الطريق الرئيسي الذي تنتهي عنده حدود المدينة. سارت روزا على طول الطريق وحدها، حتى صادفت نقطة تفتيش يقف عندها ضابطان من الألمان. وقفت روزا إلى جوارهما.

- «هل ستقتلني مجددا يا كويك هانز؟» سألت روزا.

- «روزا المخبولة إلا قليلا»، قال أحد الضباط بلغة روسية سليمة، بينما ضرب الآخر روزا على ظهرها ببندقيته الآلية.

هربت روزا منهم؛ جريت نحو حقل ذو حشائش طويلة، وظلت تعدو طويلا طويلا. اندهش الضابطان أن «روزا المخبولة إلا قليلا» استطاعت أن تجري حتى هذه المسافة البعيدة. كان الحقل ملغَّما. ثم سطع أمام عيونهم ضوء بهي شديد، ضوء أنبأ عن وفاة روزا «المخبولة إلا قليلا».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

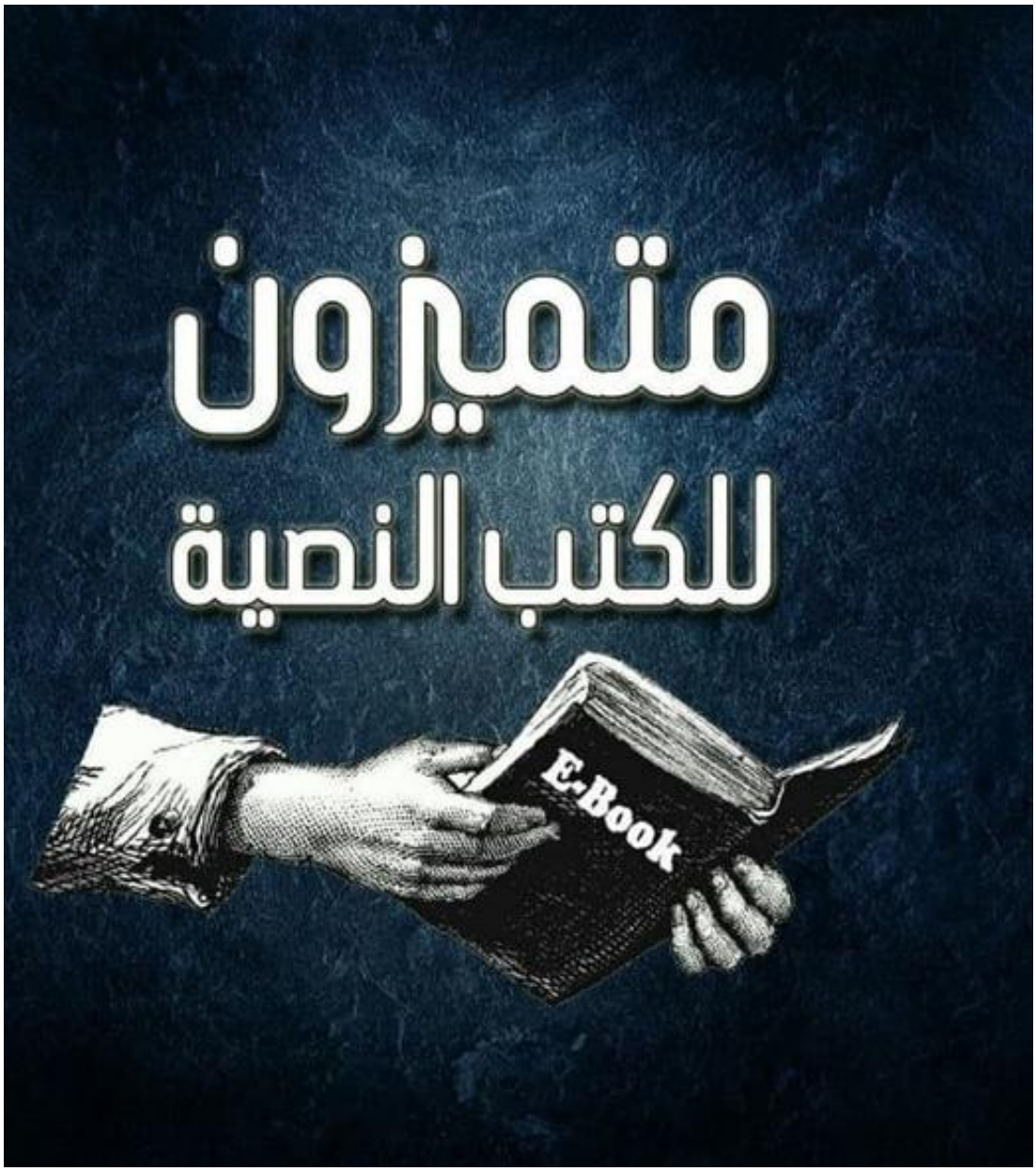
متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

عن الرواية..

نيكولاي نيكراسوف..

1828 – 1878

العَرَبة

اعترافات أحمق على فراش الموت

المُرابي

ليونيد أندرييف

1871 – 1919

لعازر()

فيودر سولاجوب

1877-1927

إنسان صغير()

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن

الفصل التاسع

الفصل العاشر

الفصل الحادي عشر

أندريه بلاتونوف

1899 – 1955

روزا

Notes

[←1]

(1) زيت مخلط كان استخدامه الرئيسي هو تصفيف شعر الرجال في العصر الفيكتوري والإدواردي؛ حيث إنّه كان بمثابة بلسم أو منعم للشعر.

[←2]

(2) شخصيات أدبية وتاريخية.

[←3]

(3) قصيدة للشاعر اللورد بايرون تحكي قصة راهب سجين.

[←4]

(4) عملة نقدية روسية، يساوي المائة منها روبل واحد.

[←5]

(5) استوحى ليونيد أندرييف القصة من حكاية وردت في الإنجيل، عن لعازر الذي تأخر السيد المسيح في علاجه، فمات، وبعد ثلاثة أيام أعاده السيد المسيح إلى الحياة وأخرجه من القبر. لم يرد في الإنجيل أي شيء عن حياة لعازر بعد قيامته.

[←6]

(6) أختا لعازر.

[←7]

(7) السيد المسيح.

[←8]

(8) مخلوق أسطوري في الميثولوجيا الإغريقية له جسد حصان وجذع ورأس إنسان.

[←9]

(9) أسطورة إغريقية عن فتاة غضبت عليها الإلهة الإغريقية أثينا فحولتها إلى امرأة بشعة المظهر، كما حولت شعرها إلى ثعابين، وكان كل من ينظر إلى عينيها يتحول إلى حجر.

[←10]

(10) كان أغسطس إمبراطورًا رومانيًا مؤلهًا عند شعبه، وقيل أنه كان من أشد الحكام الرومانيين عداوة للمسيحية.

[←11]

(11) في الأصل الروسي هي «маленький человек»، وهو ذات المُسمى الذي أطلق على اتجاه أدبي يحكي عن الضعفاء والمهمّشين في المجتمع، وإن اختلفت ظروفهم، ظهر هذا الاتجاه في الأدب الروسي مع ظهور الواقعية، أي تقريبًا في العشرينات من القرن التاسع عشر، ومن أمثلة هذا الاتجاه، بطل قصة سالاجوب هنا، وبطل قصة «المعطف» لجوجول، و»إيوشكا» بطل قصة أندريه بلاتونوف الذي سترد ترجمتها فيما بعد في هذا الكتاب.

[←12]

(12) كانت من العادات الروسية القديمة، أن تُمنح الزوجة مبلغًا من المال من قِبَل والديها يُسمّي «مَهرًا»، وكان ذلك المبلغ محل طمع ويهدف في الأصل إلى إغراء الرجال بالزواج من ذوات الأصل العريق، فكلما كانت الزوجة ثرية زاد المبلغ الذي تحوزه.

[←13]

(13) جيمس كوبر، كاتب أمريكي عاش في القرن التاسع عشر، واعتاد كتابة أدب المغامرات.

[←14]

(14) توماس مين ريد؛ المؤلف الأيرلندي الأمريكي، اعتاد كتابة روايات المغامرة؛ ويُعرف أيضا باسم الكابتن مين ريد.

[←15]

(15) نسبة إلى أرمينيا.

[←16]

(16) الكفاس الروسي هو مشروب سلافي تقليدي مخمر يتم تصنيعه عادة من خبز الجاودار.

[←17]

(17) صيغة مصغرة من «صاحب».

[←18]

(18) كُتبت القصة عام ١٩٠٥، وتشير الجملة هنا إلى الحرب الروسية اليابانية التي اندلعت ما بين الإمبراطورية اليابانية والإمبراطورية الروسية في ٨ فبراير ١٩٠٤ حتى ٥ سبتمبر ١٩٠٥، انتهت الحرب بتوقيع معاهدة بورتسمث، ويقصد المدير أن سارانين ربما عمد إلى تقليص حجمه تشبهًا باليابانيين لقصر قامتهم.

[←19]

(19) ميدالية تمنح لتكريم هؤلاء المقدرين للحب، العدالة، التقوي والوفاء، وقد اعتمدها كتتويج، كارل فريدريش في فبراير ١٧٣٥، تكريما لاسم زوجته آنا بيتروفنا، ابنة بيتر عظيم روسيا.

[←20]

(20) روسلافل هي إحدى مدن روسيا في الكيان الفدرالي الروسي سمولينسك أوبلاست.

[←21]

(21) اسم «كويك هانز» الأصلي.

[←22]

(22) المقصود بالفوهرر هو أدولف هتلر زعيم الحزب النازي.